كان ياما كان

(٣)

• مدينة العجائب
• ثأر العرب
• الولد الشريد

تأليف

محمد سعيد العريان   أمين دويدار

محمود زهران

الطبعة الخامسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مدينة العجائب

١

فى قديم الزمان ، كان بين مدينتَى « أفسوس » و « سَرَقوس » عداوةٌ شديدة ، وحروبٌ مستمرَّة ؛ ولم يكن يُؤْذَنُ لأحد من أهل أفسوس ،أن يدخلَ سرقوس ، ولا لأحدٍ من أهل سرقوس، أن يدخُلَ أفسوس ؛ وكل من تجرَّأ من أهل إحدى المدينتين ، على دخول المدينة الأخرى ، كان جزاؤه الشَّنْق ، أو يفتدى نفسَه بمئة قطعة من الذهب ، يدفعُها إلى حاكم المدينة ، ثم يرحلُ عنها سريعًا . . .

فى يوم من الأيام ، فى ذلك الزمان البعيد . قبَضَ الحراسُ فى مدينة أفسوس ، على رجل من أهل سرقوس ، وساقوه إلى الأمير ، ليحاكمَه على دخول المدينة . . .

وكان ذلك السرقوسىّ شيخًا جليلا ، كبيرَ السن ، أشيَبَ الشعر تدعو هيئتُه إلى هيبته واحترامه ؛ ولكنّ حاكمَ مدينة أفسوس ، لم تعطِفْه على الرجل هيئته ، أو شيْبتُه ، وخيَّره بين الموت شنقًا ،

وبين أن يدفعَ الغرامةَ المقررةَ على كل من يدخلُ مدينةَ أفسوس ، من أهل سرقوس . . .

استمع الشيخُ إلى كلام الحاكم فى هدوء وثبات ، ثم قال فى صوت رزين هادئ : يُؤْسفُنى يا سيدى الحاكم ، أننى لا أملكُ مئةَ قطعة من الذهب ، أفتدى بها حياتى ؛ على أن حياتى ليست غاليةً إلى هذا الحد ، فقد ضقْتُ بالعيش ، وصار الموتُ أحبَّ شىء إلىّ . . .

استمع الحاكمُ إلى كلام الشيخ ، فرقَّ له قلبُه ، وأيقن أن وراءَ كلامه سرًّا يُخفيه ؛ فأقبل عليه وهو يقولُ له فى عطف : يبدو لى أنك — أيها الرجل — تحملُ بين جنبَيك همًّا ، ثقيلاً يُحببُ إليك الموت ، والخلاصَ من هذه الحياة ؛ فهل لك أن تُطلعَنى على سرك ، وتكشف لى عن دَخيلة نفسك ، لعلى أستطيعُ معونةً لك ، وتفريجًا لهمك . . .

فنظر إليه الشيخُ وفى عينيه دموع ، ثم قال له : أرجو أن تُعفيَنى أيها الأميرُ من الجواب ؛ فليس شىءٌ أثقلَ على قلبى من الحديث عن تلك القصة ، التى أعيشُ فيها منغَّصًا حزينًا ، منكسرَ القلب ، منذ ثلاثين سنة ، وتوشكُ أن تنتهىَ اليوم بموتى على عُود المشنقة . . .

فازداد تأثرُ الحاكم وقال له : بالله عليك إلا ما قَصَصْتَ علىَّ هذه القصة ، لعل لها على يدىَّ خاتمةً سعيدة . . .

٢

فأشرقتْ على شفتَى الشيخ ابتسامةٌ يائسة ، ثم قال :

أنا نَجْوانُ بن ميكال السرقوسى ؛ نشأت فى بيت عظيم من بيوت سرقوس ، وقد كان أبى تاجراً ، وجدى تاجراً كذلك ؛ فلما بلغت الرجولة ، اشتغلت بالتجارة كما كان يشتغلُ بها أبى وجدى ، ثم تزوَّجت فتاةً كريمةَ الأبوين ، وعشنا معًا سعيديْن أكملَ السعادة ؛ ثم بدا لى أن أسافرَ إلى صقلية ، لأعالجَ فيها بعضَ شئون التجارة ، فسافرت إليها ، وأقمت فى فُندق كبير من فَنادقها العامة ؛ وبدا لى بعد وقت أن إقامتى ستطولُ فى صقلية ، فلم يَهُنْ علىَّ أن تظلَّ زوجتى بعيدةً عنى ، فكتبت إليها أدعوها لتلحقَ بى ؛ فما هى إلا أن وصلتْها الدعوة حتى لبَّتْها مسرعة ، فقد كان حبُّها لى ، وشوقُها إلى لقائى ، يعادلُ حبى لها ، وشوقى إلى لقائها . وكانت حاملاً فى شهرها التاسع ؛ فلم تكَدْ تصلُ إلى الفُندق الذى أقيمُ به فى مدينة صقلية ، حتى جاءها المخاض ، ثم وضعتْ طفلين تَوْأمين ، كأنهما فِلْقتان من القمر الطالع .

وصمت الشيخُ برهة ، ثم استأنف قائلاً : ولم يكن عجيبًا أن تلدَ زوجتى فى ليلة وصولها ، فقد كان ذلك هو الموعدُ الذى استوفَتْ فيه أشهرَ حَملها ؛ ولا كان عجيبًا أن تلدَ توأمين ، فإن كثيراً من

الأمهات يلدْنَ توأمين أو ثلاثةً توائم ؛ ولا كان من العجيب كذلك أن يكونَ هذان التوأمان متشابهين تمامَ التشابه ، فإن أكثر التوائم متشابهون ، لا يكادُ يفرقُ بينهم شيءٌ فى الجسم أو فى الشكل أو فى الصورة ؛ ولكن العجيبَ الذى يجبُ أن يُذكرَ . هو أنه فى هذه الليلة نفسها . كان يقيمُ بالفندق الذى نقيمُ فيه . سيدةٌ من السودان ؛ فجاءها المخاضُ فى تلك الليلة كذلك . ووضعت ولدين توأمين . كأنهما قطعتان مصقولتان من الآبنوس اللامع ؛ وكانا متشابهين تمامَ التشابه كذلك ، لا يكادُ يفرق بينهما شيءٌ فى الجسم ولا فى الشكل ولا فى الصورة . . .

ولكن أمَّهما كانت سيدةً فقيرة ، لا تكادُ تجدُ قوتها ؛ فرأيت أن أضمَّ ولديها إلى ولدىَّ . لينشأوا معًا إخوانًا متحابين . يتعاونون على سرَّاء الحياة وضرَّائها ؛ وقد رضيتْ أمُّ الطفلين بذلك ، ورأت فيه خيراً لها ولولديها ؛ كما رضيتْ زوجتى ، ورأت فيه خيراً لنا ولولدينا . . .

وقد سميت ولدَىَّ « سعداً » و « سُعَيداً » ، وصار اسم

رفيقَيْهما « فرَجًا » و « فُرَيْجًا » ؛ على أنِ التشابهَ التامَّ بين كل توأمين من الأولاد الأربعة ، كان يجعلنا ننادى كلا منهما أحيانًا باسم أخيه ، فننادى سعداً باسم سعيد ، وندعو فرجًا باسم فريج ؛ وهكذا صار لكل ولد منهم اسمان يعرفُهما وينادَى بهما ، وتشاكلت الأسماءُ كما تشاكلت الصور . . .

ومضت بضْعة أشهر . وانتهت أعمالى التجاريةُ فى صقلية ، فأزْمعت العودَةَ إلى سرقوس ، على سفينة كبيرة ، من السفن التى تنقلُ البضائعَ والركابَ بين البلدين . . . .

وأبحرت السفينةُ بى ، وبزوجتى ، وبأولادنا الأربعة ، ونحنُ أكثرُ خلْق الله سعادةً وأوسعُهم أملا ؛ فلم نكن نتوقَّعُ شيئًا من الأحداث التى يَخْبَؤُها لنا القدر . . .

٣

وسكت الشيخُ قليلاً ثم قال :

ولم تكد السفينةُ تبتعدُ بنا عن الجزيرة ، حتى بَرَق البرق ، وأرْعَدَ الرعد ، وغامت السماء ، وهبَّت الرياح ، وعلت الأمواج ، وأخذت السفينةُ تصعَدُ بنا وتهبط ، وتميطُ وتعتدل ؛ فركبَنا الخوف ، وأيقنَّا بالهلاك . وكان الملاَّحون يتوقّعون أن تهدأ العاصفة بعد قليل ،

ولكنّ الرياحَ لم تلبَثْ أن اشتدت ، وتعالت الأمواجُ حوالَينا كالجبال ، ولم يبقَ إلا أن تنقلبَ بنا السفينةُ ظهراً لبطن ، أو تتحطَّمَ من شدة دَفَعات الموج ؛ فتسرَّب اليأسُ إلى قلوب الملاحين ، وأسرعوا إلى قارب النجاة فركبوه ، فلم يبقَ على ظهر السفينة أحدٌ من البشر غيرى ، وغيرُ زوجتى والأطفالُ الأربعة . . .

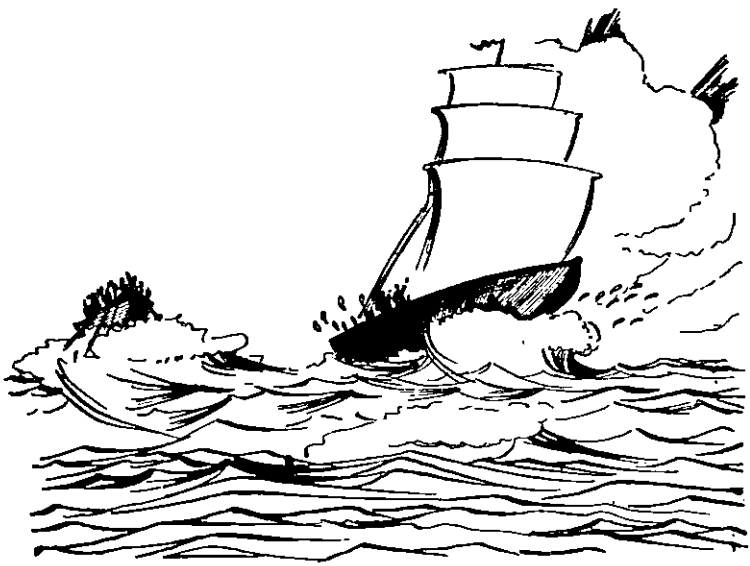

وبدا لى أن أحتال حيلةً للنجاة ، فأخذت أنظرُ حوالىّ ؛ ولكنى لم أجدْ وسيلةً من وسائل النجاة ، بعد أن ذهب الملاحون بالقارب الوحيد فى السفينة . . .

ولم أكن ممن يرهبون الموت ، ولكن بكاءَ زوجتى وأطفالها الأربعة ، كان يقطعُ قلبى تقطيعًا ؛ فرفعت عينىَّ إلى السماء أسألُ اللهَ المعونةَ لى ولهم . . .

ووقعتْ عيناى على ساريتَين منتصبتين من سَوارى السفينة ، فرأيت أن أستخدمَهما على وجه مَّا ، فأتخذَهما وسيلة للنجاة بنفسى وبأسرتى ، إنْ كان مكتوبًا لنا النجاة . . .

فمضيت إلى الساريتَيْن فأنزلتُهما عن موضعهما ؛ وعَمَدْت إلى إحداهما فربطت أحدَ ولدىَّ إلى طرَفها ، وربطت فى طرفها الآخر أحدَ التوأمين السودانيين ؛ ثم عمدت إلى السارية الأخرى ، فربطت ولدى الآخرَ فى أحد طرفيها ، وربطت فى الطرف الثانى رفيقَه السودانى ؛ ثم ربطت نفسى فى وسط إحدى الساريتين ، وطلبتُ إلى زوجتى أن تربُطَ نفسَها فى وسط السارية الأخرى ؛ حتى إذا غرِقت السفينة ، لم يبتلعْنا البحر ، وعامت بنا الساريتان على وجه الماء ، حتى يقضىَ اللهُ أمراً . . .

ولم نكد نفرُغُ مما نحن فيه ، حتى اشتد هياجُ البحر ، وعصفت الريح ، فلم تَقْوَ السفينةُ على المقاومة ، وغمرَها الماء ؛ فأخذت تَغُوص ؛ وحملتْنا الساريتان على ظهور الأمواج الهائجة ، كأننا دودٌ على عود . . .

ولم يكن باستطاعتى حينَذاك أن أقدمَ معونةً إلى زوجتى ، فقد كنت منصرفًا إلى العناية بالطفلين المرتبطين إلى ساريتى ، فلا أكادُ

أجدُ فرصة للعناية بزوجتى ، وبالطفلين المرتبطين معها إلى السارية الأخرى ؛ فكنت أكتفى بالنظر إليها ، وبكلمات التشجيع التى تطغى عليها أصواتُ الأمواج الصاخبة ؛ ثم لم يلبث الموج أن فرّق بيننا ، فحمل ساريتى إلى أقصى اليمين ، وحمل السارية الأخرى إلى أقصى اليسار ؛ ولكنّ عينىّ كانتا ترقبانها من بعيد ، وأملى فى الله كبير . . .

ثم هدأت العاصفة ، وخفّت ثورةُ الموج قليلا ، ولكن الساريةَ الأخرى كانت منى على بُعد بعيد ، لا أستطيعُ أن أصلَ إليها ، ولا تستطيعُ أن تصلَ إلىّ . . .

وما زالوا يبتعدون عنى ، حتى صرت لا أراهم على البعد إلا أشباحًا يتحركُ بها الموج ؛ ولكنّ قاربًا من قوارب الصيادين أدركهم قبل أن يختفوا عن عينىّ ، فالتقطهم ومضى بهم نحوَ الشاطئ ، فلم أعُدْ أراهم ولم يعودوا يرَوْنى ؛ ولكنى كنت مطمئنًا ، لأنهم قد نجَوْا . . . .

وظللْت مرتبطًا مع الطفلين إلى السارية الأخرى ، والموجُ يذهبُ بنا مرةً إلى اليمين ، ومرة إلى الشمال ، وأنا دائم العناية بالطفلين ، حتى بَصُرتْ بنا سفينةٌ كانت سائرةً على بعد فأنقذتْنا ؛ وكان بحارةُ هذه السفينة يعرفوننى لحسن الحظ ، فاحتفَوْا بى ، وأكرمُونى ، وقدّموا إلىّ إلى الطفلين كلَّ ما يستطيعون من معونة ، حتى وصلْنا جميعًا سالمين إلى سرقوس . . .

وكنت آمُلُ وقد نجَت زوجتى مع الطفلين ، أن تعودَ بهما إلى سرقوس ؛ فبقيتُ أيامًا وأسابيعَ أرقُب مَقْدَمَهم ، فكلما سمعتُ

نداءً باسمى . أو طَرْقًا على باب دارى ، ظننتُ أن زوجتى هى التى تنادينى أو تطرُقُ بابى ؛ ولكنَّ الأيامَ تتابعت ولم تحضُرْ زوجتى ، ولم أعرفْ أين ذهبتْ مع الطفلين ؛ ثم توالت الأسابيعُ والأشهر ، ولم أسمعْ عنهم خبراً أو أستدلَّ لهم على أثر ؛ ولكنَّ اليأسَ لم يتسرَّبْ إلى قلبى قط . فقد كنتُ على يقين بأنهم أحياء ، يعيشون فى مكان قريب أو مكان بعيد ، ولكنهم لا يملكون وسيلةً للحضور إلى سرقوس . . .

٤

وتغرغرت عيناه بالدموع . واختنقَ صوتُه بالبكاء . فسكت برهة حتى استعاد هدوءه . ثم عاد يقول :

وكبر طفلاى ، وصارا صبيين مميزين ؛ فكنت دائمَ الحديث إليهما عن أخوَيْهما الغائبين ، أمنِّيهما دائمًا بالمعاد مع أمهما ؛ فلم تَزلْ هذه الأمنيةُ تكبَرُ معهما حتى بلَغا سنَّ الشباب ، وعَقَلا ؛ فكانت هذه الأمنيةُ التى غرستُها فيهما منذُ الطفولة ، سببًا لتنغيص حياتهما ، ثم لتنغيص جديد لحياتى ؛ فقد بدآ يفكران فى الرحلة للبحث عن أخوَيْهما وأمهما ، وألحَّ عليهما التفكيرُ فى ذلك ، حتى خشيتُ عليهما أن يَفقدا عقلَهما ، أو أن أفقِدهما كما فقَدْتُ أخوَيهما وأمَّهما من قبل . . .

وكنت شديدَ الرغبة فى العثور عليهم ؛ ولكنى كنت أخشَى لو سمَحتُ لولدى ورفيقه بهذه الرحلة المجهولة العاقبة ، أن أفقدَهما وأضلَّ طريقَهما ، كما فقدت أخوَيهما وأمَّهما من قبل ؛ ولكنّ خوفى لم يستطعْ مقاومةَ رغبتهما الشديدة فى الرحلة ، فما زالا يُلحَّان علىَّ حتى أذنتُ لهما ؛ فأعدَّا عُدةَ السفر ، وجهَّزا كل ما يلزمُهما من متاع ، ثم ودّعانى ومضَيَا ؛ وبقيت وحيداً فى سرقوس ، بلا أنيس ولا جليس ، لا يُسلينى فى وَحدتى إلا الأملُ القوىُّ فى عَوْدتهم جميعًا ، لنستأنفَ معًا حياةً جديدةً سعيدة !

ولكنّ الأيامَ توالت ، وتَبعتْها الأسابيع ، وتصرَّمت الشهور ، ولم يَعُدْ هذان ولا هؤلاء ؛ وثَقُلتْ علىَّ الوَحدةُ والهمُّ والقلق ، حتى خشيتُ أن يكونَ مكروهٌ قد أصابهم جميعًا ، أو أصابهم متفرقين ، فأقضى ما بقِىَ من حياتى شقيًّا فى وَحدتى المؤلمة ؛ فرغبتُ فى مقاومة اليأس بالرحلة فى بلاد الله ، للبحث عنهم جميعًا وقررت ألا أعودَ حتى أعثُرَ بهم ، أو أموتَ دون أن ألقاهم . . .

قال الشيخُ ذلك ، ثم أخفى وجهَه فى راحتَيه وبكى ؛ فلما رفع وجهَه بعد لحظات ، رأى فى عَيْنى الحاكم وفى عيون مَن حولَه من السامعين ، دموعًا تترقْرَق ، تأثراً بحاله . . .

ثم استأنف الشيخُ حديثَه قائلا :

ولم أزلْ يا سيدى الحاكم ، أسعى فى الأرض منذ بِضْع سنين ، أبحثُ عن سُعَيْد وفُرَيج ، وعن أخوَيهما سعد وفرَج ، وعن أمهما

البائسة ، متنقلا فى البلاد من مدينة إلى مدينة ؛ حتى زرت كل بلاد الإغريق ، والروم ، والشام ، ومصر ؛ ولم أترُكْ بلداً قريبًا أو بعيداً إلا ذهبتُ إليه ، باحثًا ، منقبًا ، سائلاً كلَّ من ألقاه ، فلم أنْته بشىء من ذلك إلى نتيجة ، ولم أقفْ لأحد منهم على خبر ؛ ولكنى لم أرجعْ عن عزيمتى ، فقد أجمعْتُ أمرى منذُ أول يوم ، على أن أمضىَ فى البحث عنهم إلى أقصَى الأرض ، حتى أعثُرَ بهم أو أموت ؛ فلم أزلْ فى تَجْوالى وبحثى حتى انتهيتُ إلى أفسوس ، حيث قبَض علىَّ حَرَسُك . . .

فهذه هى قصتى يا سيدى ، قد تمَّتْ فصولها ؛ فإن شئت فأزْهِقْ رُوحى على حبل المشنقة ، فإن ذلك هو الختامُ الطبيعىُّ لقصة حياتى المؤلمة ؛ وليس يَحزُنُنى شىء ، إلا أن أموتَ قبل أن أهتدىَ إلى مكان أحبابى الغائبين ، أو أعرفَ ماذا كان مصيرُهم ! . . .

٥

استمع حاكمُ أفسوس إلى قصة الشيخ ، وشفتاه تَختْلجان من التأثر والانفعال ؛ فلما انتهى الشيخُ من حديثه ، نظر إليه الحاكمُ نظرةً طويلة ، فيها عطفٌ ورقَّة ، ثم قال له :

إن قصتَك مؤلمةٌ أيها الرجل ؛ وقد كنت أتمنَّى لو أستطيعُ العفوَ عنك . ولكنَّ القانونَ صارم ؛ فلستُ أملكُ إلا أن أرجئَ تنفيذَ

الحكم عليك يومًا واحداً ، لعلك أن تجدَ فى خلاله أحداً يعرفُك من أهل أفسوس ، فيعطفَ عليك ، ويؤدىَ عنك الغرامةَ التى فرضها القانونُ على كل سرقوسى يدخلُ مدينةَ أفسوس فيفتديك بها من الموت . . . . . .

قال الحاكمُ ذلك ، ثم وكَّل به مَن يحرسُهُ إلى الغد ، وأولاه ظهرَه ومضى . . .

ورأى الشيخُ نفسَه وحيداً فريداً ، فى مدينة غريبة ، وليس بينه وبين الموت إلا بضعٌ وعشرون ساعة : فابتسم يائسًا حزينًا وهو يقولُ لنفسه : ليته لم يُشفق علىّ ولم يطلقْ سَراحى ؛ فقد كان الموتُ أحبَّ إلىّ ! . . .

ثم استرسل فى تفكيره برهةً وعاد يقولُ لنفسه : ومَن ذا يعرفُنى فى هذه المدينة الكبيرة ، فيفتدىَ حياتى بماله ، وأنا شيخٌ ضعيف ، غريبٌ فى المدينة ، لا صاحبَ لى فيها ، وليس بينى وبين أحد من أهلها مودَّة ؟ . . .

ولو أن هذا الشيخَ اليائس ، كان مطَّلعًا على الغيب ، فى اللحظة التى سأل فيها نفسَه هذا السؤال : ثم مدَّ عينَيْه إلى ما وراءَ الأسوار الشامخة التى أقامها اليأس حوله ، لعرف أن له فى أفسوسَ أهلا وأحبابًا ، يتمنَّى كل منهم أن يفتديَه بحياته ؛ لأنهم أقربُ الناس إليه صلةً . . .

ولكنه لم يكن يدرى ، ولم يكن أحدٌ منهم يدرى كذلك !

. . . فى ذلك الوقت ، كانت زوجتُه وأولادُه الأربعةُ فى مدينة أفسوس ، لا يعرفون شيئًا من خَبَرِه ، ولا يعرفُ بعضُهم شيئًا من أخبار بعض . . .

أما سعيدٌ ورفيقهُ فُريج ، فكانا يقيمان فى المدينة منذُ ثلاثين عامًا ، ذلك لأن الصيادين الذين التقطُوهما مع أمهما من البحر ، وحملوهم فى قاربهم إلى الشاطئ ، قد ذهبوا بهم إلى « فونا » فباعوهم لحاكمها ، ليتخذَهم عبيداً له ؛ وكان هذا الحاكمُ صهراً لحاكم أفسوس ، فذهب إليه مرةً ليزورَه ومعه الطفلان ، فأعجب بهما حاكمُ أفسوس ، واستَهْداه إيَّاهما . فأهداهما إليه ؛ ومن ذلك الوقت عاشا فى مدينة أفسوس . وانقطعت الصلةُ بينهما وبين أمهما . ولم يكونا يعرفان شيئًا عن أبيهما ، ولا عن ماضيهما ، ولا عن وطنهما ؛ لأنهما كانا صغيرَين ، لا يدركان من أمور الدنيا شيئًا . . .

وتربَّى سُعَيدٌ هو ورفيقهُ فريجٌ فى بيت الحاكم . حتى كبرا وبلَغا مبلغَ الشباب . وهما لا يعرفان عن أصلهما شيئًا ؛ وكان سُعَيد شجاعًا ، مِقدامًا ، جرىءَ القلب . فجنَّده الحاكمُ فى جيش المدينة ؛ ثم نشبت حربٌ بين مدينة أفسوسَ وإحدى جاراتها . فأبدى سُعيدٌ فى هذه الحرب فنونًا من البطولة تستحقُّ الإعجاب ؛ فكافأه الحاكمُ على ذلك بأن منحه الحرية . ورقَّاه ضابطًا . وخَطب له عروسًا جميلةً من أهل أفسوس . اسمهُا « دارا » . فزوَّجه إياها ؛ فعاش معها سَعيداً ناعمَ البال ، وعاش معهما رفيقُه فريج . خادمًا مخلصًا . وتابعًا أمينًا ؛

ثم لم يلبثْ سُعيدٌ أن اشتغل بالتجارة ، فاغتنى ، وكثُر مالُه ، وأصبح من وجهاء أفسوس ؛ وطابت له الحياةُ بها كما طابت لرفيقه فريج . . .

وأما سعدٌ ورفيقُه فرج ، فإنهما بعد أن فارقا أباهما فى سرقوس ، أخذا يتنقلان فى البلاد ، بحثًا عن أخويهما وأمهما ، فيقيمان فى كل مدينة زمنًا ، يتحسَّسان الأنباء ، ويتقصَّيان الأخبار ؛ ثم يُفارقانها إلى مدينة أخرى ، وهكذا . . . حتى انتهى بهما المطافُ إلى أفسوس ، فى اليوم الذى دخلها فيه أبوهما نجوانُ الشيخ ؛ ولكنهما لم يتعرَّضا للخطر الذى تعرض له أبوهما ، لأن صديقًا كانا يعرفانه من أهل أفسوس ساعدهما على الخلاص من الحراس ، فدخلا المدينةَ فى أمان واطمئنان ؛ واتخذا غرفةً فى بعض فنادق المدينة ليُقيما فيها . . .

وبعد لحظات ، حضر إليهما صديقُهما الذى ساعدهما على الخلاص ، فأخبرهما أنه رأى فى مجلس الحاكم شيخًا كبيراً ، قبض عليه الحراسُ وهو داخلٌ إلى المدينة ؛ فحكم عليه بالموت شنقًا ، أو يدفعَ غرامةً مئةَ قطعة من الذهب ، ثم أمْهلَه إلى الغد كى يدفعَها أو يموت . . .

فابتسم سعدٌ وفرجٌ مسرورَين لخلاصهما من أيدى الحرَّاس ، وكرَّرا لصديقهما الشكرَ على تخليصهما من الموت ومن الغرامة جميعًا ؛ ولم يخطُرْ ببالهما أن ذلك الشيخَ الكبيرَ الذى سمعا بخبره من صديقهما ، هو أبوهما نجوانُ المسكين ! . . .

٦

استراح سعدٌ ساعةً فى غرفته بالفُنْدُق ، ثم دفع قطعةً من الذهب إلى رفيقه فرج . وطلب إليه أن يذهبَ إلى السوق فيشترىَ طعامًا يهيئُه للغداء . رَيْثَما يجولُ هو فى المدينة جَوْلة ، ليعرفَ مداخلَها ومخارجَها وطرقاتها ، ويتمتعَ بمشاهدة ما فيها من المناظر . . .

فأطاع فرج ، وخرج إلى السوق ليشترَى الطعام . وخرج فى إثْره سعدٌ ليجولَ جولته ؛ لكنه لم يكدْ يمشى قليلاً ، حتى أبصر فرجًا عائداً ؛ فتعجب لعودته بهذه السرعة ، وأقبل عليه يسألُه : ماذا عاد بك قبل أن تفعلَ ما أمرتُك به ؟ . . . ألم تجدْ فى السوق طعامًا ؟

فقال له : إن الطعامَ مهيَّأ فى الدار يا سيدى ، وقد أرسلتْنى إليك سيدتى لأستعجلَك بالحضور . قبل أن يبرُدَ الطعام ، ويملَّ الضيوفُ الانتظار . . .

فازداد عَجَبُ سعد لهذا الجواب ولم يفهَمْ له معنى . وعاد يسأله : أىّ دار ؟ . . . وأى طعام ؟ . . . وأية سيدة ؟ . . . وأى ضيوف ؟

قال الرجل : دارُك ياسيدى وطعامُك ، وزوجتُك وضيوفُك ! . . .

وكان سعدٌ يعرفُ فى رفيقه فرج ، أنه يميلُ إلى المُزاح والدُّعابة ؛ فلما سمعه يقولُ له : « طعامُك . . . ودارك . . . وزوجتُك . . .

وضيوفُك . . . » ظن أنه يمزَحُ كعادته ؛ لأن سعداً لم يكن له فى هذه المدينة دار ، ولا زوجة ، ولا ضيوف ، فإنه لم يهبطْ إليها إلا منذُ ساعات ؛ فالتفت إليه وهو يقولُ له جاداً : ليس هذا أوانَ المزاحِ يا صاحبى ؛ فدعْ عنك زوجتى وداري ، فليس بى حاجة فى أفسوسَ إلى زوجة ولادار ؛ وأسرعْ إلى السوق لتشترىَ ما أمرتُك به من الطعام ، واحذَرْ أن يَغْبِنَك التجار ، أو يسرقوا منك القطعة الذهبية . . .

فبدا الجدُّ فى وجه الرجل ، وقال : إننى لم أتعوَّدْ المزاحَ فى وقت الجد يا سيدى ، وإنما أرسلتنى إليك سيدتى « دارا » ، لأستعجلَك بالحضور ؛ فقد أعدَّ الغَداءُ وحان موعدُه ، ولم تزَلْ سيدتى ، وأختها نوسة ، تنتظران مَقدَمَك . . .

فاغتاظ سعدٌ لإصرار الرجل على قوله ، واستمراره فى مُزاجه ، وقال له غاضباً : قلت لك إننى ضيقُ الصدر بهذا المزاح الثقيل ؛ فاذهبْ لما أمرتُك به ، أو هات القطعةَ الذهبيةَ التى دفعتُها إليك ، فأشترى لنفسى ما أريد ، ولا حاجةَ لى بك ! ؛ ؛ ؛

فأجابه الرجل مدهوشاً : أىَّ قطعة ذهبية دفعتَ إلىَّ يا سيدى ؟

قال سعدٌ وقد زاد به الغيظُ والغضب : هل ضيَّعتَها يا منحوس ؟ والله إن كنتَ ضيعتَها لأمزقنَّ جلدَك ! . . .

ثم هم به ليضربَه ، فأفلت من بين يديه وهو يُزَمْجرُ غاضباً ؛ فإنه لم يتعوَّدْ منذ كان ، أن يمدَّ إليه سيدُه يداً أو ينالَه بكلمة سوء ؛ ولكن سعداً أسرع إليه ، فجذبه من طَوْقه ، ولطمه على صُدغه ؛

فاحتمل اللطمةَ صامتًا . ثم استدار على عَقبه وأسرع عائداً من حيث أتى ، وهو يقول لنفسه فى إشفاق وغيظ : ماذا جرى لسيدى اليوم ؟ . . .

ولم يزل ماشيًا حتى بلغ داراً صغيراً جميلة . فدقَّ بابها ، فلم يلبَثْ أن انفتح له البابُ فدخل ؛ وكان بداخل الدار سيدةٌ ذات جمال وزينة . وإلى جانبها فتاةٌ تقاربها سنًّا ، وتشبهُها جمالا ولطفاً . كأنها أختها ؛ فمال على أذُن السيدة وهو يقول لها هامسًا : لقد لقيتُه يا سيدتى فى الطريق ، ولكنه أبى أن يحضُرَ معى . وقال لى فى غضب . ليس لى زوجةٌ ولا دار . . .

فبدا الغضبُ فى وجه السيدة وتَضَرَّجَتْ وَجْنَتاها ؛ وظنت أن زوجَها غاضبٌ منها ، فلا يريدُ أن يراها . ولا أن يعودَ إلى دارها ؛ فأخذت تسألُ نفسَها عن سبب ذلك . وهى فى حَيرة وقلق ؛ ثم استدعت الرجلَ وسألته : ألم تعرفْ أين ذهب سيدك بعد أن فارقته ؟

قال : لقد رأيتُه متجهًا نحو الفُندق الكبير . وفهمت من قوله ، أنه قد يتناولُ غَذاءَه هنالك ! . . .

فأسرعت السيدةُ إلى ارتداء ثيابها ، وقد بدا لها أن تذهبَ إليه فى الفندق ، لتعرفَ سرَّ غضْبته وامتناعه عن العودة إلى داره ؛ وحاولت أختُها أن تصحبَها ، ولكنها منعتْها ، وذهبت وحدها إلى الفندق الذى يقيم فيه سعدٌ ورفيقُه فرج . . .

٧

كانت هذه السيدة ، هى دارا زوجةُ سُعَيد ، وكان فُرَيجٌ — رفيق سعيد — هو الرجل الذى قابله سعدٌ فى الطريق ، وجرى بينهما ذلك الحديث ؛ وكان سعدٌ يظنُّ أنه فرجٌ رفيقُه ، لتمام التشابه بين التَّوْأمَين ، كما ظن فريجٌ أن سعداً هو سيدُه سُعيد ، لتمام التشابه بين الأخَوَين كذلك ؛ ولأنه لم يكنْ يخطرُ ببال أحد من التوأمين الأربعة ، أن لكل منهم أخًا يشبهُه تمامَ الشبه ، ويعيشُ مثله فى مدينة أفسوس ؛ كما لم يخطرْ ببال دارا ، أن الرجلَ الذى قابله فريجٌ وتحدَّث إليه ، ليس هو زوجَها ، ولكنه أخوه وشبيهُه ؛ ولذلك ذهبت مسرعةً إلى الفندق الذى وصفه لها فريج ، من غير أن يخطرَ ببالها شىءٌ من تلك

الحقائق العجيبة ! . . .

وكان سعد قد عاد إلى الفندق غاضبًا ضيقَ الصدر ؛ وكان فرج قد عاد من السوق بالطعام ، وأخذ يهيئ مائدةَ الغداء ؛ وكان سعدٌ يريد أن يعاتبَه على ما جرى بينهما من ذلك الحديث العجيب ، وهو لم يزَلْ يظنُّ أن الذى قابله فى الطريق وتحدث إليه ، هو فرجٌ لا فُرَيْج ، فلما وجده مشغولا بتهيئة المائدة ، آثَرَ أن يترك العتابَ لفرصة أخرى ، فتركه فى عمله ، وهبط إلى بَهْو الفندق ليجلسَ قليلا رَيْثَما يتمُّ إعدادُ الطعام ؛ وفى تلك اللحظة ، دخلت دارا وهى ثائرةٌ غاضبة ، قد تضرَّجَتْ وَجْنَتَاها من شدة الانفعال والغَيظ ؛ فلم تكَدْ عينُها تقعُ على سعد وهو جالسٌ على كرسيه فى البهو ، حتى قصدت إليه وهى تظنُّ أنه زوجُها سُعيد ، وقالت له بغضب : لم أكن مصدقةً لما بلغنى ، حتى رأيتُك جالسًا هنا ونحن فى انتظارك هناك ! . . . فماذا جرى حتى يحدُثَ ذلك ؟ . . .

فوقف سعدٌ مدهوشًا وهو يقول : أتوجهين إلىَّ الكلامَ يا سيدتى ؟

فازدادت دارا غضبًا وهى تقول : سيدتك ؟ ما هذه اللغةُ الجديدةُ التى أسمعُها ؟ ولماذا لا أتوجَّهُ إليك بالحديث ؟ هل انقطع كلُّ ما بيننا من صلة ؟ . . .

ثم غطَّت وجهها بيديها وأخذت تبكى ؛ فاقترب منها وقد ازداد حَيرة ، وهمَّ أن يقولَ شيئًا فخانه لسانُه ، فقد كان منظرُها وهى تغطى وجهَها بكفَّيْها ، يدعو إلى الرثاء والشفقة . . .

ولكنها لم تلبَثْ أن جفّفت دموعَها، ثم رفعت وجهَها إليه وهى تقولُ فى هدوء واتزان : هيا معى إلى الدار، فإن أختى نوسةَ تنتظرُك هناك : وليس من اللائق أن تسمعَ عن خصام يكونُ بيننا وهى ضيفةٌ فى دارك .

أخذ سعدٌ يرددُ كالمذهول : أختُها نوسة ؟ . . . ضيفةٌ فى دارى ؟ . . .

قالت دارا : نعم أختى نوسة . . . فى دارك . . . فإن كنتَ ترى من حقك أن تقطعَ كلَّ صلة بينى وبينك ، فما ذنبُ أختى نوسة ؟ ولمَ تُهينُها كلَّ هذه الإهانة . وهى لم تدخُلْ دارك إلا تَلْبيةً لدعوتك ! . . . . . .

قال سعدٌ فى هدوء . وهو يحاولُ أن يخفِيَ ما به من الغيظ : إننى لا أفهمُ يا سيدتى كلمةً واحدةً مما تقولين ، فأىُّ صلة هذه التى كانت قائمةً بيننا . ومالى ولأختك نوسة ؟

قالت وقد اشتدت ثورتها : إلى هذه الدرجة تنكرُ كلَّ صلة تربطُك بزوجتك . وبدارك ؟ . آه يا ربى ! . ماذا حدث حتى يكونَ هذا كله ؟ . . . ثم انفجرَتْ باكية .

فاندفع سعدٌ يقول ثائراً : ماذا أسمعُ منذ اليوم من قول عجيب ؟ . . يا سيدتى إننى لست زوجَك . ويؤسفنى أن أقولَ لك إننى لم أتزوّجْ بعد . ولا أعرفُ داراً من دور هذه المدينة التى لم أدخلْها إلا منذ ساعات ! . . .

فبرَّقت السيدة فى وجهه وقد بدا لها أنه قد فَقَدَ عقلَه ؛ وكان منظرُها وهى تحدقُ فى عينَيه يخيلُ إلى مَن يراها أنها هى التى فقدت عقلها ؛ فعاد سعدٌ إلى رقَّته وقال فى إشفاق : اهدئى قليلا ، فليس فى الأمر ما يسوء . . .

فهدأت دارا قليلا ، وقد أمَّلت أن يعودَ زوجها . . . إلى رشاده ؛ ونظرت إليه عاتبة وقالت : إذَنْ فتعالَ معى . . . عُدْ إلى دارك يا زوجى العزيز ! . . .

ثم تأبَّطَتْ ذراعَه ومضت به ؛ فلم يجدْ بُدًّا من الانسياق معها ؛ لعل ذلك أن يرُدَّ إليها رشادها . . . . . .

وكان فرجٌ قد هبَط من غرفته ليدعوَ سيده إلى الطعام ، فلما رآه يتحدثُ إلى تلك السيدة لم يشأ أن يقطعَ ما بينهما من الحديث .

ووقعت عليه عينُ دارا وهو واقفٌ على مقربة ، فلم يقَعْ فى وَهْمها إلا أنه فُريج ؛ فغمزَتَ له بعينها ليتبعهما إلى الدار ، فمشى وراءهما وهو لا يفهمُ شيئًا مما يرى أو يسمع . . .

٨

كانت « نوسة » أختُ دارا ، جالسةً تنتظرُ عودةَ أختها فى قلق ؛ وكان فريجٌ قد فارق الدارَ لبعض عمله ، وترك زوجتَه « سامْبَا » الطاهية لتهيئ ما بقى من طعام الغَداء فى المطبخ . . .

ثم لم تلبثْ دارا أن عادت وهى تتأبَّطُ ذراعَ سعد ، وفرجٌ يتبعُهما ؛ أما فرجٌ فدخل إلى المطبخ ليعاونَ الطاهيةَ فى إعداد المائدة : وأما سعدٌ ودارا ونوسةُ فاستداروا حولَ المائدة ينتظرون الطعام . . .

ولم تكد سامبا يقع نظرُها على فرج . حتى صاحت به : لقد غبتَ كثيراً يا زوجى أنت وسيدى . حتى قلقتْ نوسةُ ودارا لغَيْبتكما فأين كنتما ؟ وماذا أخَّركما ؟

فدُهش فرجٌ لقولها . لأنه لم ير من قبلُ هذه المرأةَ التى تزعُمُ أنه زوجُها . بل إنه لم يتزوجْ بعد : ولكن دهشةَ سيده سعد بخفاوة دارا ونوسةَ به . كانت أكثرَ وأعظم ؛ فقد كانتا تتحدثان إليه كأن بينَه وبينهما أوثقُ الصلات . . .

وبينما كان سعدٌ يتناول غَداءه على المائدة . بين دارا زوجة أخيه وأختها نوسة . وفرجٌ يتناول طعامَه كذلك مع سامبا الطاهية فى المطبخ ؛ إذ وصل سُعيدٌ ورفيقُه فُريج ؛ وكان بابُ الدار مغلقًا ، فأخذا يدقانه ؛ ولكنْ لم يفتَحْ لهما أحد . فقد كان كلُّ أهل الدار فى داخل الدار ، ولذلك لم يكن أحدٌ بجوار الباب ؛ فلما تعبا من دق الباب ولم يفتَحْ لهما أحد ، أخذا يصيحان : نحن سعيدٌ وفريج ! فبلغ صوتهما آذانَ الخدم فذهب أحدُهم إلى سيدته فأخبرها ؛ فضحكت وقالت : لا شك أنهما مجنونان ، فأحكِما إغلاق الباب !

ثم أقبلت على طعامِها ؛ وعلى تحية زوجها . . . وأختها ؛ وسعيدٌ فوريجٌ يصيحان وراءَ الباب فلا يهتمُّ بصياحهما أحد ! . . .

فلما يئس سعيدٌ من انفتاح الباب ، انصرف مغضَبًا ، وتبعه فريجٌ مغضبًا مثله ، وهما لا يعرفان سببًا لانقفال الباب فى وجهَيْهما . . .

وكان سعيدٌ جائعًا أشدَّ الجوع ، فذهب إلى بعض مطاعِم المدينة ليتغدَّى ، ورأسُه يكاد ينفلق من التفكير والقلق والهم . . .

ولقى فى المطعم سيدةً من صديقات زوجته ؛ فاستَحْيا أن يدعوَها إلى داره فيَرى البابَ مغلقًا ، فدعاها لتتغدَّى معه فى الفندق ، وزعم لها أن زوجتَه مسافرة ؛ فلما تغدَّيا ، أرادت السيدةُ أن تعبرَ له عن شكرها لدعوته ، فدفعت إليه خاتمًا ثمينًا هديةً منها إلى زوجته ؛ فتقبَّل الهديةَ شاكراً ، ووعدها بأن يحملَ إليها فى الفندق الذى تقيمُ فيه ، عِقداً ثمينًا ، زعم أن زوجتَه كانت تريدُ أن تُهديه إليها ؛ ثم مرّ بسوق الصاغة ، فطلب إلى صائغ يعرفُه هناك ، أن يُحضر له قلادةً وصَفَها له ليَفِيَ بوعده لتلك السيدة . . .

٩

أما سعد ، فإنه لم يكَدْ ينتهى من الغَداء فى دار أخيه ، حتى زعم لدارا أنه مرتبطٌ بميعاد ، ثم ودّعها بلطف ، كما ودع أختهَا نوسة ؛ وانصرف عن الدار مسرعًا قبل أن تعودَ إلى جنونها ، فتتشبَّثَ ببقائه إلى جانبها . . .

وكذلك تخلّص فرجٌ من سامبا ، وتبع سيده على الطريق . . .

لكنهما لم يكادا يبتعدان قليلا عن الدار ، حتى لقيهما الصائغُ الذى كلفه سُعيدٌ أن يحضرَ له القلادة ؛ فتقدم بلطف إلى سعد ، ودفع إليه القلادَةَ وهو يقول : لقد كلفتنى هذه القلادة خمسين قطعةً من الذهب !

فلم يفهمْ سعدٌ لقوله معنى . وأراد أن يرُدَّ له القلادة ويخبرَه أنه ليس صاحبَها ؛ ولكن الصائغَ ترك القلادةَ بين يديه ، ومضى مسرعًا ولم يطلبْ لها ثمنًا ؛ لأن سُعيداً عميلٌ أمينٌ يوثَق بحسن أدائه لما عليه ؛ فبلغ العجَبُ من سعد غايتَه . والتفت إلى فرج وهو يقول : لست أشكُّ أن أفسوسَ هى مدينةُ العجائب ؛ فقد كاد عقلى يطيرُ من كثرة ما توارد علىّ من الحوادث المدهشة . منذ هبَطْنا إلى هذه المدينة فى الصباح ! . . .

ولكنْ لم يجبه فرج ، ومطَّ شفتيه معبراً عن شديد دهشته ؛ فقد كادت الحوادثُ التى مرت به كذلك منذ الصباح ، تطير بعقله ! . . .

أما الصائغُ الذى دفع القلادةَ إلى سعد وفرج ، فإنه لم يكد يفارقهما حتى قبض عليه الشرطة ، ليسوقوه إلى السجن ؛ لأنه كان مدينًا لبعض الناس بخمسين قطعةً من الذهب ، ولم يؤدِّ الدَّينَ فى موعده . . .

وبينما هو ماش بين الشرطة فى طريقه إلى السجن ، إذ وقع نظرُه على سُعيد ، وكان هو الذى كلفه أن يصنعَ القلادة ؛ فلم يكد يقع عليه نظر الصائغ المقبوض عليه ، حتى صاح به : أدركْنى يا صاحبى ،

وادفع إلىّ ثمنَ القلادة التى أوصيتنى بصُنعها .

فقال له سعيد : وأين هى القلادة حتى أدفعَ إليك ثمنها ؟

قال الصائغ فى دهشة : أتنكرُ يا صاحبى ، أم تمزَح ؟ لقد دفعتها إليك منذ قليل ! . . .

فنظر سُعيدٌ إليه مدهوشًا ، وقال : ماذا تقول ؟ أنت دفعتَها إلىّ ؟ . . .

فاحمرت عينا الصائغ من الغضب ، وصاح فى حدَّة : إننى لم أكن نائمًا ، ولا سكران ، حين دفعت إليك القلادةَ منذ لحظات ؛ فهات ثمنهَا بالله ، لتخلصَنى من السجن !

فعجب سُعيدٌ وازداد دهشة ، وقال له : اذهبْ إلى حيث تشاء ؛ فإنى لن أدفعَ إليك شيئًا ، لأنى لم آخذْ منك شيئًا . . .

ثم أولاه ظهرَه ليمضىَ فى طريقه ، ولكنَّ الصائغ تشبَّث به وهو يصيح : أتأخذُ مالى وتنكر ، وتدعُنى أذهبُ إلى السجن ؟ أهذا هو الشرف ؟ . أهذه هى المروءة ؟ . . . .

ولم يلبثْ أن اشتد الخصام بينهما ، فرأى الشرطةُ أن يقودوهما معًا إلى الحاكم ، ليفصلَ فيما شَجَرَ بينهما من الخلاف . . .

وبينما كان سُعيدٌ والصائغ بين أيدى الشرطة ، فى طريقهما إلى دار الحاكم ، إذ وقع نظرُ سُعيد على فرج السرقوسى ، فظن أنه فُريجٌ صاحبُه ؛ فناداه ، وطلب إليه أن يذهبَ إلى زوجته دارا ، لتدفعَ إليه خمسينَ قطعةً من الذهب ، يخلص بها نفسَه من هذه الوَرْطة ؛

وحسب فرج أن الذى يخاطبُه هو سيده سعد . فدهش حين رآه مقبوضًا عليه بين أيدى الشرطة ، وازداد دهشة حين سمعه يطلبُ منه أن يذهبَ ثانيةً إلى تلك السيدة التى تَغَدَّيا فى دارها مكرَهَين ، دون أن يكونَ لهما بها صلة ؛ ولكنه لم يجرُؤْ على عصيان أمر سيده ؛ فاتجه نحو تلك الدار . وهو يسأل نفسَه فى الطريق عن تلك الأسرار العجيبة ، التى تفجؤهما فى كل لحظة ، منذ هَبَطا هذه المدينة العجيبة . . .

فلما سمعت دارا بخبر القبض على زوجها ، انتابَها القلق ، ولكنها لم تتردَّدْ فى دفع المال إلى فرج ، وهى تظنُّ أنه فُريج ، فأخذه ومضى مسرعًا ، ليخلصَ سيده من أيدى الشرطة ؛ ولكنه لم يكد يبلغ نصفَ الطريق ، حتى لقيَه سعد ، فاندفع إليه فرحًا ، ودفع إليه المالَ الذى أخذه من دارا ، وهو يقول : الحمدُ لله على خلاصك من أيدى أولئك الشرطة الغلاظ ؛ ولكن قل لى بالله : كيف أطلقوا سَراحك ؟ . . . . . .

ولم يفهم سعد معنى لما يقوله فرج ، كما لم يفهم سرَّ هذا المال الذى يدفعُه إليه ؛ لأنه — أولا — لم يكن مقبوضًا عليه . ولأنه — ثانيًا — لم يكلف صاحبه أن يحضرَ له مالاً من أحد ؛ فوقف برهةً صامتًا وهو يقول لنفسه : ماذا أسمع وماذا أرى ؟ وما هذه العجائبُ التى تتعاقبُ على عينىَّ وأذنىَّ منذ اليوم ؛ فلا أكادُ أخطو خَطوة فى طريق هذه المدينة حتى ألقَى عجبًا ، أو أسمعَ عجبًا ؛ فهذه امرأةٌ تزعُمُ أننى زوجُها وتُصرّ على أن تَصحَبَنى إلى دارها لأتغدَّى معها ، وتزعُمُ أنها دارى ، وأنا رجلٌ غريبٌ فى هذه المدينة . ليس لى فيها زوجٌ ولا دار . . .

وهذا صائغٌ يدفع إلىّ قلادةً من ذهب ، يزعُمُ أنى أوصيتُه بصُنعها ، ثم يدعُها بين يدىَّ ويمضى ، وأنا لا أعرفُ فى هذه المدينة صائغًا ولا ذاتَ قلادة . . . وأعجبُ ما فى الأمر ، أن أرسلَ صاحبى منذ لحظات إلى الميناء ، ليَحزمَ متاعنا ويحملَه إلى السفينة لنَفِرَّ من هذه المدينة العجيبة ، فلا يلبَثُ أن يعودَ إلىّ ليدفعَ لى خمسينَ قطعةً من الذهب وهو يسألُنى فى لهفة : كيف خلَصْتَ من أيدى أولئك الحراس الغلاظ ؟

كان سعدٌ يتحدثُ إلى نفسِه صامتًا ، وصاحبُه فرجٌ واقفٌ بين يديه ، ينظُرُ إليه صامتًا كذلك ، وهو يقولُ لنفسه : يا تُرَى ماذا أصاب سيدى ، وأىُّ أسرار عجيبة تكْتَنفُنى وتكتنفُه منذ هبطْنا هذه المدينة ؟ . . .

١٠

لم يكن سعدٌ ولا فرج ، يَدْريان شيئًا من سر هذه الحوادث العجيبة المتتابعة ؛ فبينما هما واقفان يفكران فى أمرهما ، إذ أقبلت عليهما سيدةٌ أنيقة ، فتقدَّمتْ بالتحية إلى سعد ، ثم قالت له : أين القلادةُ الذهبيةُ التى وعدْتَ أن تُهديَها إلىَّ ؟

فجَحَظَتْ عيناه من الدَّهشة ، وقال لها : متى وأين لقيتُك يا سيدتى ، فوعدتُك أن أهديَ إليك قلادةً ذهبية ؟

فبدت الدهشةُ فى وجه السيدة وقالت : تسألُنى متى وأين ؟ ألا تذكُر أننا كنا نتغدى معًا فى المطعم ؟

قال سعد : أؤكدُ لك يا سيدتى . أننى لم أتغدَّ قط فى مطعم عامّ . منذ هبطتُ إلى هذه المدينة . فحاولى أن تتذكَّرى إن كنت ناسية !

قالت السيدة وقد ازدادت دهشة : كيف أنسى ولم يَمْضِ على اجتماعِنا فى المطعم إلا قليل . وكيف تنسَى أنت ؟ . . .

قال سعد متضجراً : أف ! . . . يخيَّل إلىَّ أننى فى بلد لا يعيشُ فيه إلا المجانين ! . . .

ثم انتزع نفسَه منها انتزاعًا . ومضى يتبعُه رفيقُه فرج . وتركا السيدةَ واقفةً حيثُ كانت ، لا تكاد تفهمُ شيئاً مما دارت ولا مما سمعت ؛ فقد كان يخيَّل إليها أن الرجلَ الذى كانت تحدثه . هو سعيد . زوجُ صديقتها دارا ؛ ومن أجل ذلك كانت دهشتها عظيمة لتصرُّفه . واعتقدت أن مَسًّا قد أصاب عقله ؛ فلم يكد يبتعدُ عنها حتى بدا لها أن تذهبَ إلى صديقتِها دارا . لتخبرَها بما كان . . .

وكانت دارا وأختها جالسين تتحدثان . حين استأذنت عليهما هذه الصديقة . ثم دخلتْ لتخبرَها بأن زوجَها قد أصابه مسٌّ فى عقله . . .

وبينما كانت دارا تستمعُ إلى ما تقُصُّه عليها صديقتها ، إذ سمعت دقًّا على الباب ؛ ثم دخل زوجُها وحولَه طائفةٌ من الشرطة يحرسُونه . فلم يكد يقعُ نظرُه على زوجته . حتى سألها فى حدَّة وغضب :

لماذا لم تُرسلى إلىَّ المالَ الذى طلبتُه ؟ أيرُضيك أن يذهبوا بى إلى السجن من أجل خمسين قطعةً من الذهب ؟ . . .

فبدت الدهشةُ فى وجه دارا ، وقالت له : ماذا تقولُ ياسُعيد ؟ لقد أرسلتُها إليك مع فريج منذ ساعة . فكيف تزعُمُ أنها لم تصلْ إليك ؟

قال سُعيدٌ وقد ازداد حدّةً وغضبًا : وتزعمين أنك أرسلتيها أيضًا ؟ هذا والله عجيب ! ولست أدرى ماذا جرى لعقلك اليوم ، ولا كيف تتصرَّفين هذا التصرُّف . فتُغْلِقين البابَ فى وجهى ساعةَ الغَداء ، كأنى كلبٌ أجرب ، ثم تمنَعين المالَ عنى ليذهبوا بى إلى السجن ؛ ثم لا يكفيك هذا . فتزُعمين أنك أرسلتيه إلىَّ منذ ساعة ! . . .

واندفع سُعيدٌ يشتمُ زوجتَه ، ويوبخُها ، دون أن يترك لها فرصةً لفهم الحقيقة ؛ وظلت هى تستمعُ إليه مدهوشة ، لا تكاد تعرفُ سببًا لهذه الثَّورة وهذا الغضب ، إلا أن يكون زوجُها قد أصابه خَبَلٌ كما تقول الصديقة ، وازدادت يقينًا بجنونه ، حين تذكرت ما كان من أطواره الغريبة ، وهما جالسان إلى مائدة الغداء ، فلم تحاولْ ردًّا على قوله ، ودفعت إلى الحراس خمسين قطعةً أخرى من الذهب ليُطْلقوه ؛ ثم تعاونت مع خدم الدار فى القبض عليه ، وألقته فى حجرة من حجرات الدار ، وأغلقت عليه بابها ، ثم أرسلت تستدعى الطبيبَ للكشف عن علَّته . . .

وكان سُعيدٌ فى أثناء ذلك يصرُخ ، ويقاومُ مقاومةً شديدة ،

ليفلتَ من بين أيدى الخدم ؛ فلا يزيدُها صراخُه وحركاته إلا إيمانًا بأنه قد ذهب عقلُه . . .

وحاول فريجٌ أن يدافعَ عن سيده ، وأن يمنعهم من القبض عليه ، وهو يصيح غاضبًا ، محتجًّا ؛ فاعتقدت دارا أنه قد جُنَّ كما جُنَّ سعيد ، وأمرت الخدمَ أن يُوثِقوا يديه ورجليه ، ويضعوه مع سُعيد فى الحجرة المغلقة ، رَيْثما يحضُرُ الطبيب ! . . .

١١

وفى الوقت الذى كان فيه سُعيدٌ وفُريجٌ محبوسين فى الحجرة المغلقة ، كان سعدٌ وفرجٌ يتأهَّبان للرحيل ، فراراً من المتاعب التى لقيها فى هذه المدينة العجيبة ، قبل أن يَمْضىَ عليهما فيها يومٌ واحد .

وكان الطريقُ إلى الميناء يمرُّ بالدار التى يسكنها سُعيدٌ مع زوجته دارا ورفيقه فُريج ، والتى كانا محبوسَين فى حجرة من حجراتها ؛ فبينما كان خادمٌ من خدَم الدار يُطِلُّ من بعض النوافذ ، إذ وقع نظره على سعدُ وفرج ، وهما فى طريقهما إلى الميناء ، ليستقلاَّ السفينة ؛ فظن أنهما سُعيدٌ وفُريج ، وتعجب كيف استطاعا الخلاصَ من الحجرة المغلقة ؛ ثم أسرع إلى سيدته دارا ، فأخبرها أن سُعيداً وفريجًا قد فرَّا من مَحْبِسهما ، وخرجا من الدار ؛ فلم تكد دارا تسمعُ كلمةَ

الخادم ، حتى أسرعت إلى الطريق ، ومعها أختُها نوسة ، وفى أثرهما سائرُ خدَم الدار ، ليقبضوا عليهما ، ويردوهما إلى محبسهما .

فبينما كان سعدٌ وفرجٌ ماشيَين بالشارع فى أمان الله ؛ لم يَرُعْهما إلا صوتُ دارا وهى تصيحُ بالناس خلفَهما ليُمسكوهما ؛ فأسرع الناسُ إليهما ، وأحاطوا بهما ، دون أن يدرىَ سعدٌ أو فرجٌ سببًا لذلك ؛ وازدحم الناسُ حولهما حتى سدوا عليهما الطريق ، ولم يجدوا سبيلاً إلى الخلاص !

وكان بالقرب من مكانهما ملجأ من ملاجئ اليتامى ، تُشرف على إدارته سيدةٌ عجوز ، فطرَقا بابَه ليحتَميا به من شر الناس . . .

ولم تكن سيدةُ الملجأ تعرفُ سببَ ازدحام الناس على الرجلين ، فخافت أن ينالَهما أحدٌ بسوء ؛ ففتحت بابَ الملجأ ، وأذنت لهما فى الدخول ؛ ثم سكت الباب ، لتمنعَ الناسَ من اقتحام الملجأ . . .

أما دارا ، فظلت واقفةً فى زحام الناس ، وهى تصيحُ غاضبة ، لتُطْلِقَ السيدةُ سَراحَ زوجها ورفيقه ! . .

وكان الناس حول دارا ، يعتقدون أن الرجلين اللذين دخلا الملجأ ، هما زوجُ دارا ورفيقُه ، وأنهما مجنونان كما تزعمُ ؛ ولكن سيدةَ الملجأ لم تصدق أن الرجلين مجنونان ؛ فقد كان هدوءهما ظاهراً ، وحركاتُهما طبيعية ، وكلامُهما يدُلُّ على الاتزان والعقل ؛ فأدركت أن فى الأمر سرًّا ، ولم تقبَلْ أن تفتحَ الباب لدارا أو لأحد من الناس ، وتركتهم جميعًا خارج الملجأ ، يصيحون ويَصخَبون . . .

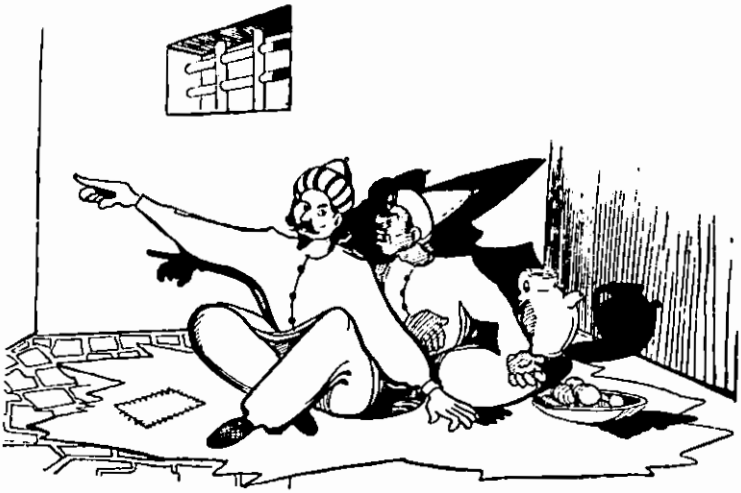

١٢

وكانت السيدةُ التى تديرُ هذا الملجأ ، عجوزاً تقيَّة ، طيبةَ القلب ، كثيرةَ المعروف والخير ؛ ولم تكن من أهل أفسوسَ الأصليين ، ولكنها قَدِمَت إليها منذُ سنين ، واتخذتها وطناً ؛ ولم يكن لها فى المدينة أهل ولا أقارب ، ولا أسرة تعيش معها ، ولا أولادٌ يُؤْنسونها فى وَحدتها فأنشأت هذا الملجأ ، لتُؤْوىَ فيه اليتامى ، وتربيهم كأنهم أولادها وتسهر على شئونهم كأنهم أسرتُها وآلُها ؛ ولا تطلبُ على ذلك أج

ولا معونة ؛ ومضى عليها سنوات طويلة ، وهى تعيشُ على هذا الحال ؛ فأحبها أهلُ أفسوسَ واحترموها ، وأكبروا إنسانيَّتَها ورقَّةَ قلبها . . .

من أجل ذلك لم يجرُؤْ أحدٌ من الناس أن يسيءَ إليها ، أو يُرغمَها على تسليم الرجلين إلى دارا ، ولكنهم ظلوا واقفين ينتظرون ما سيكون ، ودارا واقفةٌ بينهم خارجَ الملجأ ، وهى تصيحُ صاخبةً غاضبةً محتجَّة .

أما سيدةُ الملجأ ، فكانت فى حَيرة من أمرها ، لا تكاد تدرى سببًا لما ترَى وما تسمع ؛ فالرجلان كما ترى عاقلان مُدركان ، لا يبدو عليهما شيءٌ من أمارات الجنون ؛ ولكنهما ينظُران ويسمَعان صامتين ، ولا يكادان يلفظان حرفًا ، أو يتبادلان كلمة ؛ فقد عَقلت العجائب التى مرت بهما طوال اليوم لسانَهما عن الحديث ؛ وجعلتهما فى حيرة أشدَّ من حيرة السيدة ، لا يكادان مثْلها يدريان سببًا لما يَرَيان وما يسمعان . . .

وحاولت السيدةُ أن تستَنْطقَهما ، أو تعرفَ سرَّهما ؛ فلم يجيباها عن شيء مما سألتهما ؛ ولكنهما قالا لها : إننا أيتها السيدةُ الكريمة ، نشكرُك على إيوائنا وحمايتنا ، ونأمُلُ أن نظلَّ فى حمايتك حتى يُسدلَ الظلامُ أستارَه ، فنتسلَّلَ إلى الميناء هاربين من هذه المدينة العجيبة ...

١٣

فى ذلك الوقت ، كانت الشمسُ قد أشرفت على المغيب ، وكان الموعدُ الذى حدَّده الحاكمُ لشنق الشيخ نَجوانَ قد اقترب ، ولم يدفع الشيخُ الفدية ؛ لأنه لم يكن يملكُ مئةَ قطعة من الذهب ، ولا يعرفُ أحداً فى مدينة أفسوسَ يفتديه من الموت بدفع ذلك المال عنه . . .

وسيقَ الشيخُ المسكينُ إلى ساحة القتل ، لينفذَ فيه الحاكمُ أمرَه ، واجتمع فى الساحة خَلْقٌ كثير ، ليشهدوا التنفيذ ؛ وانتظر الجلادُ حضورَ الحاكم ، ليشهدَ شنقَ الشيخ بنفسه ، أو يعفوَ عنه إذا دفع المالَ المطلوبَ منه قبل مغيب الشمس . . .

وكان الملجأ الذى أوَى إليه سعدٌ وفرج ، يشرف على هذه الساحة ؛ فلم تكدْ دارا ترى موكبَ الحاكم مقبلا ، حتى أسرعت إليه فاعترضت طريقَه ، لتشكُوَ له سيدةَ الملجأ ؛ لأنها حالت بينها وبين القبض على زوجها ورفيقه ، لتذهبَ بهما إلى طبيب يداويهما من الجنون . . .

وبينما كان الحاكمُ واقفًا يستمعُ إلى شكواها ، وقعت عينُها فى زحام الناس على زوجها سُعيد الحقيقى ، ورفيقه فُريج ؛ وكانا قد انتهزا فرصة ابتعادها عن الدار ، ففرَّا من الحجرة المغلقة ، واتخذا طريقَهما إلى قصر الحاكم ليشكُوَاها إليه ؛ فلم تكد تراهما فى رحمة

الناس ، حتى نالتها دهشةٌ عظيمة ، فقد أبصرتهما منذ لحظات يدخلان الملجأ ، ولم تر بابَه ينفتح بعد ذلك حتى يستطيعا الخروج . . .

وكان الشيخ نجوانُ واقفًا بين يدَىْ حرَّاسه ينتظرُ الموت . وهو يقلب عينيه فى جموع الناس ، فلمح سُعيداً وفُريجًا وهما واقفان بين يدى الحاكم ، يشكُوان إليه ما فعلت بهما دارا ؛ فظن أنهما سعدٌ وفرج ، وهتف بهما فرحًا . وأفلت من أيدى حرّاسه منطلقًا إليهما . وألقى ذراعيه على كتفيهما وهو يقول : لقد وجدتُكما فى الوقت الملائم . لتُنقذانى من الموت . . .

ولم يفهم سُعيدٌ ولا فُريج لعبارته معنى ، لأنهما لا يعرفانه ، إذ أنهما قد فارقاه مع أمهما منذ كانا طفلين ؛ فنظرا إليه بدهشة وهما يقولان : من أنت يا شيخ ؟ وماذا تريدُ منا ؟

فكانت دهشةُ الشيخ لعبارتهما ، أكثرَ من دهشتهما لعبارته ؛ وقال لهما مستنكراً : ماذا تقولان ؟ أتنكران معرفةَ أبيكما فى هذه اللحظة الحرجة ، وتأبيان إنقاذه

من الموت . وهو الذى أفنى حياتَه فى خدمتكما حتى صرتما رجلين ؟ . .

فهز الرجلان كتفيهما وانصرفا عنه ، ولم يجيباه بكلمة ؛ فامتلأت عيناه بالدموع حسرةً وأسفًا ، ورفع عينيه إلى السماء وهو يقول : رباه إننى لا أكادُ أصدق ! . . . لا أكاد أصدق ! . . .

ثم طأطأ رأسه إلى الأرض وهو يقول : الموتُ أحبُّ إلى . . .

وكانت سيدةُ الملجأ قد علمت بحضور الحاكم ، فخرجت ووراءها سعدٌ وفرجٌ ، لتعرض عليه أمرَهما وأمرَ دارا ؛ فلم تفكدْ عينُ دارا تقعُ عليها وعلى سعد وفرج من ورائها ؛ حتى اعتَرَتْها دهشةٌ عظيمة ؛ فجعلت تضرب كفًّا على كف ، وتلتفت يمينًا ثم تلتفت شمالا وهى تقول : رباه ، إننى أكاد أفقدُ عقلى فى هذا اليوم ! . . .

لقد رأت على اليمين زوجَها ورفيقَه بين يدى الحاكم ، والشيخُ واقف وراءَهما يبكى وقد أخفَى وجهَه فى راحتَيه ؛ ورأت على الشمال زوجَها ورفيقَه مرة أخرى ، وسيدةُ الملجأ واقفةٌ إلى جانبهما تريدُ أن تقصَّ قصتهما على الحاكم . . .

وهتَفَتْ دارا مرةً أخرى : رباه ! . نَوِّرْ لى قلبى وعقلى ، فقد أشرَفْتُ على الجنون ! . . .

وأحس الحاكم بمقدم سيدة الملجأ ، فالتفت إليهما ؛ فلم تكد عيناه تقعان على سعد وفرج إلى جانبها ، ثم على سُعيد وفُريج فى الجانب الآخر ، حتى أدهشه التشابهُ العجيبُ بين كل اثنين منهما ؛ ثم لم يلبَثْ أن تذكَّر ما حكاه له الشيخُ نجوان . من قصة ولديه التوأمين ،

ورفيقَيهما التوءمين ؛ فناداه ثم قال له : أليس هذان ولديك ؟

فلم يكد نظرُ الشيخ يقعُ على سعد وفرج ، ويقع نظرُهما عليه ، حتى تعارفوا جميعًا ؛ فتعانقُوا فرحين والدموعُ تجرى على خُدودهم ؛ ولم يلبثْ سُعيدٌ وفريجٌ أن عرفا قصتَهما كذلك ، فأقبلا على أبيهما يُقبلان يدَه ويعتذران إليه ؛ ووقفت دارا بين الجميع مطأطئةً رأسَها من شدة الحياء . . .

وكان الحاكمُ واقفًا يشهَد هذا اللقاءَ المؤثر بين الأب وأولاده الأربعة ، وهو يَعجَبُ منَ المقادير التى دبرت هذه المفاجأة العجيبة . . .

ولكن مفاجأةً أخرى أعجبَ وأغرب ، كانت تنتظر الجميع ؛ فإن سيدةَ الملجأ لم يكد نظرها يقع على الشيخ نجوان ، حتى هتفت : به قائلة نجوان ! نجوان !

فقد كانت هذه السيدةُ الكريمة ، هى أمّ سعد وسُعيد ، قد فرَّقت الأيام بينها وبينهما منذ كانا طفلين ، فلم تعرفْهما ولم يعرفاها ، ولم يعرفها كذلك فرجٌ ولا فريج ؛ ولكنها لم تكد ترى نجوانَ الشيخَ حتى عرفته ، وعرفت به أولادها ؛ وكان لقاءً سعيداً ، وعجيبًا ، كأنه خُرافة . . .

وهكذا اجتمع شَمْلُ هذه الأسرة الطيبة بعد فراق طويل ، وطابت لهم الحياة ، وتزوج سعدٌ « نوسةَ » أخت دارا ؛ وتزوج فرجٌ « زبيبةَ » أخت سامبا ؛ وعاشوا جميعاً فى صفو وسعادة .

ثأر العرب

١

كان فى قديم الزمان ، ملكٌ عظيمٌ من ملوك العرب ، اسمه « جَذيمةُ الأبرش » ، وكان يحكمُ مملكةً عظيمة ، اسمها مملكةُ « الحيرة » . . .

وكان بالقرب من هذه المملكة ، مملكةٌ أخرى عظيمةٌ كذلك ، اسمها مملكة « الحُضْر » ، يحكمها ملكٌ عظيمٌ من ملوك العرب كذلك ، اسمه « مُلَيْحُ بن البَرَاء » ؛ فأراد جذيمةُ ملكُ الحيرة ، أن يوسع رُقعةَ مُلكه ، فغزا مملكةَ الحُضْر ، واستولى عليها ، وقتل ملكَها مُليح ابن البراء . . .

ولم يكن للملك مليح أولادٌ يرثون ماكه ، ويأخذون ثأره ، لأنه لم يُنجبْ إلا فتاةً واحدة ، اسمها « الزَّبَّاء » فقالت : والله لأُدافعنَّ عن مُلك أبى ، ولآخُذَنَّ بثأره ، ولأقتلنَّ مَن قتله ، ولو ذهبتْ روحى فى سبيل هذه الغاية !

وسمع الناس بما عزمت عليه الزَّبَّاء ، فضحكوا ساخرين ، وقالوا : كيف تقدرُ فتاةٌ ناعمةٌ مثل الزَّبَّاء ، على استرداد مُلك أبيها من جذيمةَ

الأبرش . وهو سيدُ ملوك العرب ، وأكثرُهم مالا ، وأعظمهم جنداً ؟

ولكن الزَّبَّاء لم تُبال بضحك الناس وسُخْريتهم ، وأخذت تتأهبُ للوفاء بيمينها ، فحشَدت الرجال ، وبذلت الأموال ، وجمعت الزادَ والعَتاد ، ثم كتَّبت الكتائب ، وجَيَّشت الجيوش ، ونصبت الرايات ، واستعدت للزحف على بلاد جذيمةَ الأبرش .

ولم يكن جذيمةُ يظن أن فتاةً مثلَ الزَّبَّاء تغلبُه ، وهو الذى غلب أباها ، وبدَّد جيشَه ، وحطَّم عرشه ، وسفَك دمه ، واستولى على بلاده ؛ ولكن الزَّبَّاء كانت أعظمَ همةً ، وأصدقَ عزيمة ، وأقوى قلباً ؛ فما كاد الجيشان يلتقيان ، حتى انهزم جيشُ جذيمةَ وسقطت رايتُه وتفرق جمعُه ؛ فجلا عن الحُضْر مكرَهاً ، وتركها لأهلها ؛ فعادت الزباءُ إلى مملكة أبيها منصورة ؛ تُدَقُّ لها الطبول ، وتخفُقُ فوق رءوسها الرايات . ويهتفُ باسمها أهلُ الحُضْر هُتافَ التقدير والإعجاب والمحبة .

وجلست الزَّبَّاء على عرش أبيها ولبست تاجَه ، وحكمت البلادَ بالعدل والرحمة ؛ فعم الرخاءُ وسعد الناس . . .

وكانت الزَّبَّاءُ مع ذكائها وشجاعتها ، جميلةً إلى أبعد حدود الجمال . لا يكادُ يراها رجلٌ أو امرأة ، حتى يصيحَ معجَباً : سبحان من خلَق وصَوَّر !

وبذلك اجتمع لها المالُ والجمالُ والمُلك والشرف ؛ فطمع الملوكُ والأمراء ، من جميع الأقطار ، فى الزواج منها ؛ ولكنها كانت تعتذرُ إليهم آسفة ، وتردُّ رُسلهم معتذرة ؛ لأن شئونَ المملكة كانت تَشغَلها

عن التفكير فى الزواج ؛ فازدادت بذلك جاهًا ومجداً وعظمة . . .

وارتفعت مملكةُ الحُضْر فى عهد الزَّبَّاء ، حتى فاقت الممالكَ العربية جميعًا . وصار لها مقامٌ عظيمٌ عند الفرس والروم وسائر الممالك ؛ فعَظُمت الزباءُ فى عين جَذيمةَ الأبرش . عدوها القديم ، وأضمر لها فى قلبه التقديرَ والحبَّ والاحترام . . .

٢

وذات ليلة ، سهر جذيمةُ الأبرشُ ملكُ الحيرة يفكرُ فى شأن نفسه ، وفى شئون مملكته ، وفى شأن جارته الحسناء الفاتنة ملكة الحُضْر . وفى شئون مملكتها العظيمة الراقية ؛ فقال لنفسه : يا ليتنى أستطيعُ أن أعقدَ صلةً من المودة بينى وبينها ؛ فإن من مصلحة بلادى وبلادها ، أن ينعقدَ بينهما عهدُ سلام ووئام . بدلَ العداوة والخصام ؛ فإن الحربَ ليس وراءها إلا سَفْكُ الدم ، وضياعُ المال . واضْطِغانُ القلوب ، وفسادُ الأخلاق ! . . .

واستمر جذيمةُ يفكرُ فى هذا الموضوع طولَ الليل ، فلم يَغمَضْ له جَفْنٌ إلى الصباح ؛ فلما أشرقت الشمس . وأنارت الدنيا ، دعا إلى مجلسه الأمراءَ والوزراءَ وأصحابَ المشورة ؛ ثم قال لهم : إننى قد فكرت فيما كان بيننا وبينَ مملكة الحُضْر من الخصام والعداوة ، فلم أرَ من مصلحتنا ولا من مصلحة تلك المملكة . أن يستمرَّ بيننا الخصام ؛

ورأيت السلامَ والمودَةَ خيراً من الحرب والقطيعة ؛ فماذا ترون فى ذلك يا رجالَ مملكتى ؟

قالوا جميعًا : نعْم الرأىُ رأيك أيها الملكُ الهمام ؛ فلا رأىَ غيره ولا صوابَ سواه !

فابتسم الملك وقال : إننى لم أجمعْكم اليومَ لأسمعَ مديحَكم وثناءكم ، وإنما جمعتكم لأسمعَ مَشُورتَكم ؛ فأشيروا علىّ بما ترَوْن . مؤيدين لرأيى أو معارضين ؛ فإن احتكاكَ الآراء المتعارضة يجلو الحقَّ ويكشفُ عن وجه الصواب . . .

وكان للملكِ مشيرٌ ناصح ، صريحُ الرأى ، كبيرَ العقل . اسمه « قَصيرُ بن سعد » ، فقال للملك : إن كنت يا مولاى قد جمعتنَا لنسمعَ رأيَك فقد سمعناه ووَعيناه ، وإن كنت قد جمعتنا لتسمعَ رأينا فإنى أوثرُ الصدقَ فى النصيحة ، والأمانة فى المشورة ، وأقول لك بلسان صريح : إن رأيك على سداده ، هونوعٌ من الخيال لا يمكنُ تحقيقُه ، فإنك قد سفَكت بسيفك دمَ الملك مُليَح ، أبى الزبَّاء ، والعربُ لا تنسى الثأرَ ولو مضت عليه حقَبٌ وأجيال لأن الدمَ فى مذهبهم لا يغسله إلا الدم ، فكيف يقعُ فى تصوُّرك يا مولاى أن تصفَحَ الزباءُ وتعفو ، وأنت قاتلُ أبيها الملك مليح ؟

قال جذيمة : إنك كثيرُ التشاؤم يا قَصيرَ بن سعد ، تظن الناسَ كلَّهم مثلكَ فى شدة الخصام والعداوة ، وليس الأمرُ على ما تظن ، فإن القلوبَ إذا تقاربت بالمحبة ... افت بالوداد ، نسيتْ خصوماتها

القديمة ، وانمحت منها الذكريَاتُ الأليمة ؛ وقلوبُ النساء أسرعُ إلى النسيان من قلوب الرجال ، والزباءُ امرأةٌ وإن كانت ملكة ؛ فما أسرعَ ما تنسى إذا وصلتُ إلى قلبها بالملاطفة ، وإلى عقلها بالا حتيال وحسن التوسُّل ! . . .

قال قصير : وكيف تصلُ إلى قلبها وعقلها يا مولاى حتى تنسى ما كان ، وتغسلَ الدمَ باللطف والحنان ؟

قال الملك : ذلك ما جمعتكم له اليوم ، فأشيروا على بالحيلة والوسيلة . . . . . .

قال قصير : ليس عندنا حيلةٌ ولا وسيلةٌ لاكتساب قلب الزباء ، وتَنْقيته من الحقْد والبغضاء ؛ لأن دمَ أبيها القتيل ، ما يزال يترقرَقُ أمامَ عينيها حُلْمًا بالليل وخيالا بالنهار ؛ فهيهاتَ أن تنساه ، أو يصفُوَ قلبُها من الحقد على قاتله !

قال الملك : ولكنّ عندى الحيلةَ والوسيلة . . .

قال قصير : وما ذاك يا مولاى ؟ . . .

قال الملك : أن أتزوَّجَها . . . فإن الفتاةَ إذا تزوجت ابتدأت حياةً جديدةً سعيدة ، تُنْسيها كل ما كان يملأ قلبَها من أوهام وأباطيل ؛ فلا يبقى فى نفسها ولا فى عقلها شيءٌ من الحقد ، أو من الرغبة فى الكَيْد !

قال قصير : يا مولاى ، إن الإنسانَ لا يمكنُ أن يصفُو لقاتل أبيه ، والنساءُ أشدُّ من الرجال رغبةً فى الانتقام ؛ وقد كنت أخاف عليك أن تُصافيَها وأنت بعيدٌ عنها . فكيف تطمئن على حياتك

وأنت تريدُ أن تتخذها زوجةً . تُقاسمُك طعامَك وشرابَك وفراشَك !

قال الملك : سأرسلُ إليها لأخطُبَها . فإذا رضيَتْ خِطبتي فإن رضاها دليلٌ على صفاء قلبها . أما إذا أبتْ وامتنعت ، فإنّ إباءها دليلٌ على أنها لا تزال عدوّة وأن قلبَها لم يزلْ يضمرُ لنا الحقدَ والبغضاء . . .

قال جُلَساءُ الملك جميعًا : صدقت يا ملكَ العرب . وأصبتَ الرأى ؛ فأرسلْ إليها فاخطُبْها لنفسك . . .

قال قصير لنفسه وهو يهمّ بمغادرة المجلس : ما أصاب الملكُ ولا صَدَق ، ولكنه النفاقُ والملَق ؛ ولكل قَدَرٍ أسباب ! . . .

فلما انصرف قصيرٌ عن مجلس الملك ، التفت الملكُ إلى جلسائه

فقال : إنى أعرفُ إخلاصَ قصير ، وأثقُ به وأحبه ؛ ولكنى أراه كثيرَ التشاؤم ، يتوقعُ ما لا يمكنُ أن يقع ، ويحذَرُ ما لا يحذَرُه ذو قلب ولا ذو عقل . . .

قالوا : كذلك هو يا مولاى ، محبٌّ مخلص ، يُوثَقُ بحبه ، ولا يؤخَذُ بنصحه ؛ فامض فيما اعتزمتَه يا ملكَ العرب ، فإنه لا رأىَ إلا ما رأيته ، ولا تدبير إلا ما دبرته . . .

وكان للملك ابنُ أخت قويُّ

العزم ، سديدُ الرأى ، اسمه « عَمْرُو بن عَدىّ » ، فقصد إليه قصيرٌ فقال له : أدركْ خالَك يا عمرو . فإنه مقبلٌ على خُطة وخيمة العاقبة !

قال عمرو : إن خالى جذيمةَ إذا اعتزم أمراً لم يرجعْ عنه ، فدَعْه وما يريد ؛ فإنه لا فائدةَ من مراجعته ، والله يفعل بنا وبه ما يشاء . . .

٣

ثم إن الملكَ أرسل رسولا من أصحابه إلى الزَّبّاء . فقال لها : إن جذيمةَ الأبرش ، ملكَ الحيرة ، قد عرف من صفاتك ما أعجبه وسرَّه ، فأراد أن يتقرَّب إليك ، ويضعَ قلبَه ومالَه بين يديك ، ويجعلك ملكةً على بلاده وبلادك ، وسيدةً فوق كل النساء من آلِه ومن آلك ! فإن قَبلتيه زوجًا فقد ضمِنت له ولنفسك السعادة ، وأضفت إلى أمجادك أمجادَه . . .

فأطرقت الزباءُ برهةً تفكرُ فى أمرها وأمر جذيمة ، ثم رفعت رأسها إلى رسول الملك فقالت له : إنك تعرفُ أن هذا الأمرَ الذى تُحدثنى فيه لم يخطُرْ على بالى قبل اليوم ؛ وقد خطبنى قبلَ جذيمةَ كثيرٌ من الأمراء والملوك ، فردَدتُهم جميعًا عن بابى ، وأرخيتُ دونهم حِجابى .

لأنى لم أجد بينهم كُفْئًا يليق بى . أو نظيراً يشبهُنى ؛ فانتظر إلى الغدحتى أستجمعَ فكرى ، وأستشيرَ قلبى وعقلى ؛ ثم ارجعْ إلىّ لتسمعَ جوابى !

فلما خلت الملكةُ إلى نفسها ، أخذت تنظرُ إلى الأمر من كل جانب ، وتفكرُ فيه من كل ناحية . فلم تلبثْ أن اهتدت إلى رأى تطمئن إليه ؛ فنامت قريرة العين مسرورة ، والأحلامُ تسرَحُ بها فى كل واد . . .

فلما كان صباحُ الغد ، أرسلت تستدعى رسولَ الملك جذيمة ؛ فلما مَثَل بين يديها قالت له : استمعْ إلىّ أيها الرسولُ الأمين ؛ إننى قد فكرتُ فيما عرضتَه علىّ أمس . فظهر لى من فضل جذيمةَ وفضائله ما لا يخفى على أحد من العرب . وإنى ليُسعدُنى أن يكون لى زوجًا وأكون له زوجة ، فيجتمعَ مُلكى وملكُه . ويكونَ لكل منا عرشان لا عرش ، وجيشان لا جيش ، ورايتان مكان راية ؛ فما أسعدَنى به وأسعدَه ، وما أمجدَ غدى وغدَه ! فاذهبْ إليه مشكوراً مأجوراً ، فقل له : إن الزبَّاء ملكةَ الحضْر قد قرتْ عينُها بك ، وسعد قلبها بخطبتك ؛ ولولا أن النساءَ لا تسعى إلى الرجال لسَعتْ إليك ، ووفدتْ عليك ، استعجالا للسعادة ، واعترافًا لك بالسيادة !

ثم إنها أرسلت مع الرسول هدايا عظيمةً إلى الملك جذيمة ، لتكسبَ ثقتَه وتنالَ محبته ؛ وكان فيما أهدت إليه طائفةٌ من العبيد والجوارى ، ومن الخيل والإبل والغنم ، ومن التحف والطرائف التى لا مثيلَ لها فى مملكة الحيرة . . .

فلما رجع الرسولُ إلى الملك جذيمة . أبلغه ما قالته الملكة . ودفع إليه ما أرسلتْ معه من الهدايا . فسُرَّ الملك سروراً عظيماً . وفاض البشرُ على وجهه وعلى وجوه مَن حوله ؛ وأقبل عليه الأمراءُ والرؤساءُ يهنئونه ويدعون له . ويحمَدون صوابَ رأيه وسدادَ تفكيره ؛ ووقف الملكُ بينهم يتقبلُ تهنئاتِهم سعيداً مسروراً . لا تكاد تسعُه الدنيا من فَرْط ما به من الفرح والمسرة . . .

وأقبل قصيرٌ فى تلك اللحظة . فقال للملك : إننى أدعو لك يا مولاى بالسعادة . وأتمنى لك مثلَ ما تتمنى لنفسك وزيادة ؛ ولكن قلبى يحدثُنى بأمر لا يكاد ينطقُ به لسانى ، أو يُفصحُ عنه جَنانى . . .

قال الملك : إنك لم تزل كثيرَ الأوهام والوساوس يا قصير . وأراك خائفاً لغير سبب يدعو إلى الخوف ؛ فقد أكرمت الزباءُ رسولى . وقبلت خِطبتى ، ورضيَتْنى زوجاً أقاسمُها عرشَها وتقاسمنى عرشى ؛ وهذا دليلٌ على صفاء نفسها ، ونقاوَة قلبها من أسباب الحقد والعداوة ؛ فدَعْ عنك تلك الأوهام ، واستعدَّ منذ اليوم لتصحَبنى فى الرحلة إلى مملكة الحُضْر ، حيث تنتظرُ عروسى الحسناء ! . . .

قال الملك هذا ، ثم انصرف عن قصير وتركه غارقاً فى أوهامه ووساوسه فلم ينتظرْ منه رداً ولا جواباً . . .

ثم قصد الملكُ إلى ابن أخته عمرو بن عدىّ فقال له : إننى ذاهبٌ يا عمرو فى رحلة قصيرة الأمد . إلى مملكة الحُضْر ؛ فكن نائباً عنى فى حكم هذه البلاد حتى أعود . . .

قال عمرو : بالسعادة والتوفيق رحلتُك ومآبُك يا خال ، ورافقتْك السلامةُ فى الحِل والترحال .

فلما أتمَّ الملك أهبْتَه للرحيل ، غادَر مملكتَه فى موكب عظيم وجهاز فخم ، تسبقُه الهدايا الغاليةُ على ظهور الإبل . ويرافقُه أصدقاؤه وأصحابُ مَشُورته . ويتبعُه كثيرٌ من الخدم والحشم والأتباع ؛ وكان فيمن صَحبَه فى هذه الرحلة : مُشيرُه وصاحبُه قصيرُ بن سعد ، ولكنه كان من الخوف والقلق فى هم عظيم . . .

وكان للملك فرسٌ عظيمة ، اسمها « العَصَا » ، مشهورةٌ بسرعتها وجمال هيئتها ، لا يسبقُها سابق من خيل العرب ؛ فمشى بها يتبختَرُ بين أصحابه بَخْتَرةَ العروس ، والدنيا لا تكادُ تسعُه من شدة الفرح والمَسرة ؛ وقصيرٌ ينظرُ إليه حزينًا قَلقًا وهو يقول لنفسه : يا تُرى ماذا تكونُ عاقبةُ هذا الأمر ؛ فإنى لا أستطيعُ أن أصدقَ أن الزباءَ ترضى الزواجَ من قاتل أبيها ! . . .

ولم يزل موكبُ الملك يتهادى على الطريق ، حتى قطع نصفَ المسافة بين البلدين ، فأمر الملكُ أصحابَه بالنزول عن ظهور الخيل ؛ ليستريحوا وقتًا قبل أن يستأنفوا رحلتَهم ؛ فنزلوا ، ونصبوا الخيام ، وفرشوا البُسُط ، ونثروا عليها الحشايا والوسائد ؛ وقضَوْا وقتًا لطيفًا فى الطعام والشراب والسَّمر ، ومطاردة وحوش البادية فلما . . . نالوا حظَّهم من الراحة ، تهيئوا لاستئناف الرحلة إلى الحضر ؛ حينذاك التفت الملكُ إلى قصير فقال له : ماذا تقول الآن يا قصير ؟ ألم تَزلْ على رأيك ذاك ؟

قال قصير : نعم يا مولاى ، بل زدتُ اقتناعاً بذلك الرأى ، ولو كان يطاعُ لقصير أمرٌ ، لأمرتُ بأن نعودَ من حيث جئنا ، قبل أن يستحيلَ علينا المعَاد ؛ فهل لم تزَل أنت يا مولاى على ذلك الرأى ؟

فضحك الملك ساخراً وقال : بل زدتُ إيماناً به ورغبةً فيه وشوقاً إلى تحقيقه ؛ ولو كان لى جناحان لسبقتُكما إلى الحُضْر طائراً فى عَنان الجو ، لأتعجّلَ رؤيةَ عروسى الفاتنة . . . هيا فقد حان وقتُ المسير .

فهز قصيرٌ رأسه أسَفاً وهو يقول لنفسه : أرى القدر يسابقُ الحذَر ، ولا يُطاعُ لقصير أمر . . .

ثم سار إلى جانب الملك مُطبَقَ الشفتين حزيناً ، والوساوس تعبَثُ به ، والأوهامُ تملأ رأسه . . .

٤

ولم يزل الركبُ سائراً حتى بلغَ أولَ ديار الزباء . فنزل الملكُ عن فرسه ، ونزل أصحابُه معه ، ثم أرسلوا رسولاً إلى الملكة يُنْبئونها بمقدَم الملك العروس ؛ فلما علمت الملكةُ بمقدَم جذيمة ، ملأها الفرح ، وأمرت أتباعَها بالتهيؤ لاستقباله ، وأرسلت إليه تحيةَ القُدوم ؛ وحمل الخدمُ على رءوسهم موائدَ الطعام وأعلافَ الركائب ، إلى حيث نُصبتْ خيامُ الملك فى ظاهر المدينة ؛ رَيْثَما يأخذُ الناس أهبتهم ، ويتزيَّنوا لاستقباله فى احتفال عظيم . . .

وقضى الملك ليلةً سعيدةً فى مُقامه ذاك ، وهو يتخيل ، الاستقبال الحافلَ الذى ينتظرُه فى الغد ، حين يَخطِرُ فى موكبه الفخم ، بين جموع الشعب المتراصَّة لتحيَّته ، الهاتفة باسمه واسم عروسه المحبوبة . . .

ولكن قصيراً لم يكن فرِحًا ولا مرِحًا فى تلك الليلة ؛ فقد كان يتخيلُ صُوراً أخرى ، غيرَ الصور الجميلة التى يتخيلُها الملك ، إذ كان معتقداً أن الزباءَ لا يمكنُ أن تنسى ثأرَ أبيها القتيل . فلا بد أن تدبرَ لقاتله كيداً عظيمًا تثأرُ به منه !

فلما رأى الملك أمارات الهم على وجه قصير ، قال له : ألم يُقنعْك كلُّ ما رأيتَ من مظاهر الإكرام والتحية يا قصير ، بأن الزباءَ راغبةٌ فينا ، سعيدةٌ بمصاهرَتنا ، وأن شعبَها يُشاطرُنا هذه السعادة وتلك الرغبة ؟

قال قصير : وأنت يا مولاى ، ألم يداخلْك الشكُّ من هذه الحفاوة المسْرفة وهذا الإكرام الزائد ، أن يكون وراء ذلك كله مكيدةٌ مدبَّرة ؟

قال الملك : أراك قد خَرِفْتَ يا قصيرُ وفسَدَ عقلُك ؛ فإن الإكرام لا يكونُ من خصام ، والحفاوَة لا تأتى من عداوة ، ولكن المريضَ يرى مذاقَ كل شىء فى فمه مُرًّا ؛ فلن أستمعَ إليك بعد اليوم أو أقبلَ منك مَشُورة !

قال قصير : ليس للأمور بصاحب ، مَنْ لم ينظُرْ فى العواقب ! . .

وسكت برهة ثم قال : اسمعْ يا مولاى ما أشيرُ به عليك ، ثم افعلْ ما يبدو لك . . . إنك اليوم على باب هذه الملكة ، تريدُ أن تتخذها

زوجًا ، وأنت الذى قتلتَ أباها منذ سنين ؛ فإن كنت تعتقدُ أن امرأةً عربية تنسى دمَ أبيها القتيل ، فإن الزباءَ لا يمكنُ أن تنسى ؛ وإنى أخشى عليك سوءَ تدبيرها ، وأنت فى ديارها وبين أهلها ، وقد فارقتَ أهلَك وديارَك من أجلها ؛ فكل مَن حولها سميعٌ لها مطيع ، وليس حولك نصيرٌ أو مُجير ؛ فإن كنت حريصًا على النجاة فإن أمرَك لم يزلْ فى يديك ، والطريقَ وراءك سهلٌ مبسوط ، يؤدى بك إلى الأمان والسلامة ؛ أما إن كنت لم تزل على رأيك ذاك ، فإنى باذلٌ لك آخرَ النصْح ، لتستمعَ إليه وتعملَ به ، قبل أن يفوتَ أوانُ الاستماع والعمل . . . فإذا رأيت القومَ غداً قد خفُّوا لاستقبالك أفراداً أفراداً ، فاعلم أنك لم تزل فى أمان واطمئنان ؛ أما إذا رأيتهم قد جاءوك فِرقًا فِرقًا ، وتكتَّلوا عن يمينك وشمالك صفًّا صفًّا ، فاعلم أنهم على نية الغدر بك . . . فإذا تبينت ذلك فاجعل رجلك فى ركاب فرسك « العصا » ، فتمكَّنْ من ظهرها ، وخذ بها فى طريق النجاة ، فإنهم لا يمكن أن يُدركوك . . .

سمع جذيمة قول قصير ، ولكنه لم يُجبْه موافقًا ولا مخالفًا ؛ وظل جالسًا فى خيمته بظاهر المدينة ، ينتظرُ الساعة الموقوتةَ ، ليدخلَ المدينةَ بموكبه العظيم . . .

ثم حان الموعد الموقوت ، وبدأ الموكبُ خُطاه فى أول طريق المدينة ؛ وكانت الزباءُ جالسةً فى قصرها بين الخدم والجوارى الحسان ، تنتظرُ مقدمَ العروس . . .

وكان الطريقُ الطويلُ إلى قصر الملكة مفروشًا بالزهر ، وقد

ازَّيَّنت الدُّور والخيامُ على الجانبين بسَعَف النخيل ، والملكُ يسيرُ بين أصحابه ، وعلى شفتيه ابتسامةُ أمان واطمئنان ورضا ؛ ولكن قصيراً إلى جانبه لم يكن آمنًا ولا مطمئنًّا ولا راضيًا ؛ بل كانت عيناه تدوران فى مَحجرَيْهما زائغتَيْن ، وهو يرى الجموعَ على الجانبين تحتشدُ لتحية الملك العروس . . .

وأخذت الجموعُ المستقبلةُ تتكاثفُ على الجانبين . حتى صار الملكُ منهم بين صفَّين متراصَّين ، كأن كلَّ صَفّ منهما جدارٌ قائم ؛ فتذكر فى تلك اللحظة ما قاله قصيرٌ منذ ساعة ، فاضطرب بعضَ الاضطراب ، ثم مال على قصير إلى جانبه ليقولَ له فى همس : أظنك كنتَ صادقًا فى تخمينك يا قصير !

فرد قصيرٌ هامسًا كذلك : إن الفرصةَ لم تَزل فى يدك يا مولاى ، وهذه « العصا » بجانبك ، فضع رجلَك فى ركابها وانْجُ بنفسك . . .

. فحط الملك شفتَيه وقال : أتريدُ يا قصيرُ أن يقولَ العرب : هرب جذيمةُ على فرسه من كيد امرأة .

٥

وكانت الزَّباءُ قد دبَّرت أمراً ؛ فلم يكد جذيمةُ يتوسطُ المدينة ، حتى أطبق عليه الصَّفَّان من يمين وشمال ، فلا يستطيعُ حركةً إلى أمامَ ولا إلى وراء ؛ فمال على قصير يسأله تدبيرَ الأمر للخلاص من هذه

المكيدة ؛ ولكن قصيراً لم يكن إلى جانبه فى تلك اللحظة ، إذ كان مُوقنًا من ذلك كله قبل أن يكون، فوثب على ظهر « العصا » وانطلق يعدو بها فى فى طريق البريَّة ، كأنه يطير بها طيرانًا على ظهر الريح ؛ أما جذيمةُ فقد انقضَّت عليه الجموعُ كما ينقضُّ النَّسرُ على فريسته ، فحملوه أسيراً إلى قصر الزَّبَّاء . . .

وكانت الزباءُ وقتئذ جالسةً فى شرفة قصرها المُنيف ، تشاهد المنظر على بُعد وهى تقول لنفسها مسرورة : الآن قد حانت الفرصةُ للثأر من قاتل أبى ! . . .

فلما مَثَل جذيمةُ بين يديها ، نزلت عن عرشها ، ثم وقفت بين يديه ، وقالت وهى تَحنى رأسَها فى سخرية : الآن أيها الملك السعيد ، يطيبُ لعروسك أن تشكرَ المقاديرَ التى وقَفتها بين يديك ، لتعبرَ لك عن سعادتها العظيمة بالحصول على أعز أمانيها ! . . .

فرفع الملك رأسَه فى عزة ، ثم قال : أيتها الملكة ، إن الغدرَ ليس من خُلق العرب ؛ فكيف طاب لك ؟ . . .

قالت وعلى شفتيها ابتسامة : عفواً يا مولاى ، فما كان غدراً منى أن أثأرَ لأبى من قاتله ؛ ولكنك أنت الغادرُ مرتين : مرةً حين قتلت أبى بلا جريرة ، لتُضيفَ إلى مُلكك ملكًا جديداً لا حق لك فيه ؛ ومرة حين طوَّعت لك نفسك أن تتخذ ابنةَ القتيل عروسًا ، تلهو بها كما يلهو الأطفال بالدُّمى ، لتقولَ العرب : قَتَل الملكَ وَسبَى ابنتَه ؛ فتشرُف أنتَ بذلك شرَفين ، وتحتمل الزَّبَّاءُ بنتُ مليح مَذَلَّتين

لا طاقةَ لها باحتمال إحداهما . . .

قالت الملكةُ هذا ثم أولته ظهرَها لتصيحَ بجواريها فى عصبية : قدمْن للملك ما يليقُ به من أنواع التحية ! . . .

فأقبلت طائفة من الجوارى الحسان وفى أيديهم سيوف مشهورة ؛ ثم أقبلت طائفة أخرى فبَسَطْنَ بين يدى الملك أنطاعًا من جلد ، مما يُبسط بين أيدى القتلى قبل أن تهوىَ السيوف على أعناقهم ، ليسيل عليها الدمُ المسفوك ! . . .

قال جذيمة : ماذا ؟ أتضرب الجوارى رأس جذيمة ؟

قالت الملكة : عفواً ، إنك يا مولاى لأرفعُ قدراً من ذاك ! . . .

• • •

كان انتقامُ الزباء من جذيمةَ قاسيًا كل القسوة ، فإنها لم تأمرْ جواريَها بقطع رقبته ليموتَ فيستريح ؛ بل أمرت به فأجلس على نِطْع من جلد ، ثم وُضع بين يديه طَسْتٌ كبيرٌ ، ثمَ أمرت الجوارى فقطعن عروق يديه ، فأخذ دمُه ينزِفُ من عروقه فى الطَّست ، والزباء واقفةٌ بين يديه وراء ستر رقيق ، وهى تقول لجواريها ساخرة : احذَرْن يا فتَيات أن يضيعَ من دم الملك قطرة !

قال جذيمة فى ذلَّة وندم ، وهو يرى دمَه ينزِفُ من عروقه ، والحياةُ تفارقه نفَسًا بعد نفس : لا تَحفِلى بدمى يا ابنةَ مُلَيح ، فإنَّه دمٌ ضيَّعه أهله !

ثم لم يلبثْ جذيمةُ أن لَفَظَ آخرَ أنفاسه ، والزباءُ واقفةٌ تنظرُ إليه ؛ فلما رأت رأسَه قد مال ، وأنفاسَه قد خَمَدت ، قالت وهى ترفع السترَ الرقيقَ بينها وبينه : والله ما شفانى دمُك ولا كفانى ، ولكنه محَا بعض أحزانى ! . . .

ثم أمرت به فدُفن ، وقد طابت نفسُها بالثأر لأبيها من قاتله . . .

٦

وكان « عمرو بن عدىّ » نائبًا عن خاله جذيمة فى حكم مملكة الحيرة أيام غَيْبته ؛ ولم يكن يدرى ما جرى لخاله . ولكنه كان قلقًا أشدَّ القلق ، يخشى أن يتحققَ ظنٌّ قَصير ، فيقعَ الملك فى مَكيدة تدبرُها له الزَّبَّاء . فلما طال غيابُ جذيمة ، اشتد القلقُ بابن أخيه حتى ملأ قلبَه ؛ فكان يخرجُ كل يوم فى طائفة من الحرس إلى ظاهر المدينة يرقُبُ الطريق . آملا أن يجدَ رسولا مقبلا من نحو مملكة الحضر ، يخبرُه بما كان من أمر الملك الغائب ؛ ولكنَّ الأيامَ تعاقبت ولم يَعُدْ الملكُ أو يحضرْ منه رسول . . .

وذات يوم كان عمرو فى موقفه يرقُبُ الطريق ، فرأى على بعد فارسًا مقبلا نحو الحيرة ، على فرس تُسابقُ الريح ؛ فخفقَ قلبُه خفقةً شديدة ، وقال لأصحابه : إننى أكاد أظنُّ أن هذه الفرسَ التى تطيرُ

نحوَنا ، هى « العصا » فرسُ خالى جذيمة ؛ ولكنى لا أعرفُ مَن على ظهرها ، فإنه رجلٌ آخر غير جذيمة . . .

ثم أسرع ومِن ورائه جُندُه ، ليستقبلوا ذلك الفارسَ المقبل ، فلم يكد يقترِبُ منهم حتى تبيَّنوه ، فصاحوا فى قلق : إنه قصيرُ بن سعد !

ولم يلبث قصيرٌ أن وصل ، فترجَّل عن فرسه ، ثم وقف بين يدَىْ عمرو ، ليقول له وهو مطأطئُ الرأس من شدة الحزن : قد وقع المحذور يا مولاى وقتل خالُك ؛ فاطلب الثأر من قاتلته الزباء بنت مُلَيح ، ملكة الحُضْر . . .

ثم وصف له كل ما حدث منذ وصل موكِب الملك إلى الحضر ، إلى أن أطبق عليه جندُ الزباء فحملوه إلى قصرها لتقتلَه بأبيها ؛ فأطرق عمرُو ابن عدىّ برهة يفكر ، ثم رفع رأسه قائلا : لقد حمَّلنى والله يا قصيرُ همًّا عظيمًا ؛ فإن الزباءَ ملكةٌ قادرة ، ذاتُ حول وحيلة ، ولا طاقةَ لأحد بالوصول إليها ، لبلوغ الثأر منها . . . . . .

قال قصير مغضَبًا : ماذا يا ملكَ العرب ؟ أتطيبُ نفسُك بإهدار دم خالِك الشهيد ؟ أتعجِزُ عن الأخذ بثأره من قاتلتِه ؟ أترضى أن يقولَ العربُ : جلس على عرش خاله وضيَّع دمَه هَدَراً ؟ . . .

قال عمرٌو كالمعتذر : وماذا أملِكُ أن أفعلَ يا قصير ؟ . . .

قال قصير : تستطيعُ كثيراً لو أردت يا مولاى . . .

ثم صمت برهة وعاد يقول : ولكنى لا أريدُ أن أشُقَّ عليك أيها الملك ، أو تشقَّ أنت على نفسك وعلى قومك ، فدع لى أنا تدبيرَ الأمر ؛ وسأحتالُ حيلتى لأثأرَ لمليكى القتيل ، ولو بذلتُ فى سبيل الثأر دمى ! . . .

٧

لم يعرف أحدٌ منذ ذلك اليوم أين ذهب قصيرٌ ولا ماذا جرى له ؛ فقد استخفَى عن عيون الناس جميعًا ، فلم يره أحد فى الحيرة أو يسمع خبراً عنه .

فقال جماعة : إنه مات حزنًا على ملكه !

وقال آخرون : إنه انتحر ، لأنه لم يستطعْ إنقاذَ جذيمة من يد الزباء ، قبل أن تسفكَ دمَه !

وقال غيرُ هؤلاء وأولئك : إن عمرَو بنَ عدى ملكَ الحيرة الجديدَ قد قتله ، جزاءً له على فراره وترْكه الملكَ بين أيدى أعدائه !

وهكذا ذهب الناسُ مذاهبَ شتَّى فى التخمين والظن ، وإن لم يعرفْ أحد منهم حقيقةَ ما كان . . .

أما الحقيقةُ فهى أن قصيراً لم يمت ، ولم ينتحر ، ولم يقتله الملك الجديد ؛ ولكنه فعل بنفسه شيئًا لا يخطُرُ ببال أحد أن إنسانًا يفعل مثله بنفسه ؛ فقد جاء بسكين حادة فقطع بها أنفَه ، فبدا وجهه مشوَّهًا قبيحًا ، حتى لا يكادَ يعرفُه من يراه ، ثم ركب فرسَه وانطلق يعدو بها

إلى مملكة الحضر ؛ ولمحه على الطريق بعض أهل الحيرة فعرفوه ، فانطلقوا إلى قومهم فقالوا لهم : لقد رأينا قصيراً فارًّا على فرسه من الحيرة ، مجدوع الأنف ، مشوَّه الوجه ، بادىَ الهم ؛ كأنما يُطاردُه الموتُ والعذاب !

واستمعُ الناسُ إلى هذا النبأ فلم يصدقْه كثيرٌ منهم ، لأنهم لم يعرفوا لذلك سبباً ولا علة ؛ ولكن بعضَهم لم ينكرْ ولم يكذِّب ، وقال : لعله فرَّ من عمرو بن عدى ، مخافةَ أن يقتلَه جزاء تقصيره فى حق مليكه !

قال آخر : نعم ، وأظنُّ أنَّ عمراً هو الذى جدَعَ أنفَه ، وشوَّه وجهَه ، وأخذ مالَه !

قال ثالث : هو ذاك ، وإنه لأهلٌ للموت والعذاب ، فقد كان مستطيعاً أن يُنقذَ مليكَه ولم يفعلْ ، فحقُّه أن يموت . . .

قال رابع : يا ويلَه إن كان الشيطانُ قد سوَّل له أن يلتجئ إلى الزَّبَّاء ، فراراً من بطش عمرو بن عدىّ ؛ إنها خيانةٌ أخرى يستحقُّ عليها الموت ! . . .

٨

ظلت الفَرسُ تعدو براكبِها على الطريق حتى بلغتْ به بلاد الحضر ؛ فلما رآه الناسُ هنالك عجِبوا لمقدمه إلى بلدهم ، وقال بعضُهم لبعض : أليس هذا هو قصير بن سعد ، صديقُ جذيمةَ ومشيرُه وصاحبُ رأيه ؛ فماذا أتى به إلى بلدنا وقد قتلتْ ملكتُنا مليكَه ؟ . . .

وكان قصيرٌ قد تلثَّم بلثام يستُرُ أنفَه المجدوع ، ومن أجل ذلك لم يعرفْه كثيرٌ من أهل الحُضْر أو يعتقدوا أنه قصير ، صديقُ الملك القتيل ومُشيرُه ؛ ولكنهم مع ذلك أسرعوا إلى ملكتهم ليقولوا لها : إن رجلا ملثمًا يشبهُ قصيرَ بن سعد قد وصل اليومَ إلى بلدنا ، وإننا نشُكُّ فى أمره ونخشى عواقبَه !

قالت الملكة : إيتونى به لأستطلعَ خبرَه وأعرفَ ماذا جاء به .

فذهب الرسلُ إلى قصير فدعَوْه إلى المثول بين يدَىْ الملكة ؛ وكان هذا هو كلّ ما يريد ، لينفذ خُطةً دبرها وحدَه ولا يعلمُها

أحدٌ غيرُه ؛ فلبَّى الدعوةَ راضيًا وقصد من فَوْره إلى قصر الزَّبَّاء . فلما مَثَل بين يدىْ الملكة ، نزع لِثامَه عن وجهه ، فبدا أنفُه المجدوع ؛ فقالت له الملكة : مَن فعَل بك هذا يا قصير ، ولماذا جئت إلى بلدنا وبينَنا وبينكَ دمٌ عظيمُ الخطر ، لا تغسلُه إلا حربٌ مدمرة ؟ . . .

قال قصيرٌ فى خشوع واحترام : يا ابنةَ الملوك العظام ، أترَيْن ماذا فعلوا بى هنالك ؟ لقد جئتك لاجئًا مستجيراً من بطش عمرو بن عدى ملك الحيرة ؛ فقد جدَع أنفى ، واغتصب مالى ، وحبسنى عن عيالى ، وتهدَّدنى بالموت ؛ ففررت فى جُنْح الليل لأحتميَ بك من ظلمه وسوء فعله ! . . .

قالت الزَّبَّاء : ولماذا فعل بك هذا وأنت ناصحُه ومُشيرُه وأخلصُ الناس له ؟

قال : لقد اعتقد يا مولاتى أننى أنا الذى أشرتُ على خالِه جذيمةَ أن يخطُبَك ، وأن يسعى بقدمَيه إلى دارك ؛ فكانت مشورتى هذه سببًا لسفك دمه .

قالت : ولماذا فرَرْتَ إلينا يا قصيرُ ولم تفرَّ إلى بلد آخرَ من بلاد العرب ، وقد علمت ما بيننا وبين بلادك من أسباب العداوة منذ سنين ؟

قال قصير : إنك يا مولاتى لم تغدرى أو ترتكبى إثمًا بقتل جذيمة ، فهو الذى بدأك بالعدوان ، حين قتل أباك الشهيدَ مُليحَ بنَ البَرَّاء ؛ فلست معتديةً إذ سفكت دمَه ، وثأرْتِ لأبيك المقتول ظلمًا ؛ وما كان لى أن أخشى منك غدراً وأنت ذاتُ الوفاء والحفاظ والمروءة ؛ وما كان

لى أن أستجيرَ بغيرك وأنت سيدةُ ملوك العرب !

سمعت الملكةُ هذا فأطرقت برأسها إلى الأرض ، وجعلت تفكر فى أمرها وأمر قصير ، ثم فيما كان بينها وبين جذيمة ؛ فاعتقدت صوابَ ما قاله قصير ، ولكنها مع ذلك كانت تخشى الغدرَ والخيانة ؛ فإن هذا اللاجئ الذى يطلب حمايتَها ويستجيرُ بها ، كان فى يوم من الأيام أوفى أصحاب عدوها القديم جذيمةَ الأبرش ، وأوفى أصحاب خليفته عمرو بن عدى ؛ فكيف تأمَنُ له من بعدُ أو تطمئنّ إلى جواره ؟

كذلك سألت الزَّبّاءُ نفسها ، ثم رفعت رأسَها لتنظرَ فى وجه قصير ؛ فإذا أنفُه المجدوعُ يردُّها عن فكرها إلى فكر آخر ، فتقول لنفسها : ولماذا لا آمَنُ له وقد فعلوا به ما فعلوا ، فشوّهوا وجهَه بعد جمال ، وسلبوا ماله فردوه إلى الفقر بعد غنى ، وحالوا بينه وبين عياله فأوْحشوا قلبَه بعد أنس ؛ ثم تهدّدوه بالموت فأنشئوا فى قلبه عداوةً بعد محبة ، وخصاماً بعد سلام ؟

وهكذا اطمأنت الزباءُ إلى قصير بعد قلق ؛ لأن أنفَه المجدوعَ ووجهَه المشوَّهَ وثيابَه المرقّعة ، كانت تفرضُ عليها الاطمئنان إليه والرثاء له . . . .

• • •

وأقام قصير منذ ذلك اليوم فى مملكة الحضر مكرّماً معزّزاً ؛ فقد وهبتْ له الملكةُ داراً ، ومالا ، وخدماً وجوارى ؛ وأمرت كل من حولها من الخدم والأتباع والحاشية ، أن يكرموه ويبَرّوه ويسرعوا إلى مرْضاته .

وطابت نفسُ قصير بهذا الإكرام ؛ فبذل للملكة كل ما يملكُ من أسباب التبجيل والاحترام ، ومظاهر الحب والمودة ؛ فزادها ذلك ثقة به واطمئنانًا إليه ؛ فما هى إلا أسابيعَ حتى كان أقربَ أصحابها إليها ، وأحظاهم عندها ، تستشيرُه فى كل ما يعرض لها من أمور الحكم ، فيشيرُ عليها مَشُورة الناصح الأمين ، وتستعينه فى كل ما يثقلُ على كاهلها من أعباء العمل ، فيعينُها مَعونةَ الشفيق المخلص . . .

ومضت أشهرٌ على ذاك ، وقصيرٌ يتقلبُ فى أعطاف النعمة ، والثقة تزداد كل يوم بينه وبينَ الملكة ، حتى قال الناسُ فى كل مكان : لقد نسى قصيرٌ مولاه القتيل وبدَّل بولائه لجذيمة ولاءه للزباء . . .

٩

لم يكن قصيرٌ يقصدُ من ذلك كله إلا الخداع ، ولم يكن تقرُّبه إلى الزَّبَّاء إلا حيلة ، حتى يجدَ الفرصةَ الملائمة لينتقمَ منها ، جزاءَ ما فعلتْ بجذيمةَ الأبرش ؛ فأقام فى جوارها يرقُبُ ويتجسَّس ، ويدبرُ الحيلةَ للأخذ بالثأر ؛ وكان فى أثناء ذلك يصطنعُ الحيلَ ، ليزدادَ قُربًا من الملكة ، وعلمًا بأحوالها ، ومعرفةً بأسراها . . .

وكانت الزَّبَّاء تُقيمُ فى قصر عظيم ، محكم الإغلاق ، لا يقوَى على اقتحامه إلا جيشٌ كبيرٌ ذو عدد وعُدَّة ، وكان فى إحدى غُرفات ذلك القصر بابٌ سرّى ، لا يعرفُه أحدٌ غيرُ الملكة ، يؤدى

إلى سرداب خفى تحت القصر ، فى نهايته بابٌ يؤدى إلى نفق بعيد ممتد تحت النهر ، ثم ينتهى إلى غابة كثيفة الأشجار ، تخفى ما وراءها عن عيون الناس جميعًا ؛ فكانت إذا عزمتْ يومًا على مغادرة القصر دون أن يدرىَ بها أحد ، فتحت ذلك البابَ فنفذَت منه إلى السرداب ، ثم نفذت من باب السرداب إلى النَّفَق ، فتجتاز تحت النهر من شاطئ إلى شاطئ حتى تنتهىَ إلى تلك الغابة ، دونَ أن يحسَّ بها أحدٌ من الخصوم أو من الأصدقاء . . .

وكانت الزباءُ قد اتخذت ذلك الطريقَ الخفىَّ تحت القصر ، ليكونَ سبيلا لنجاتها إذا دهمَها عدو قوىّ ؛ ومن أجل ذلك لم يكنْ يعرفُ سرَّه أحدٌ غيرُها ؛ وكانت بذلك آمنةً على نفسها ، مُطمئنةً على حياتها ، لا تخشى شرًّا ولا تخافُ عُدوانًا . . .

وكان كل ما يريدُه قصير ، هو أن يعرفَ مدخلَ القصر ومخارجه ، وأبوابَه ومَساربَه . حتى إذا حانت ساعةُ الانتقام ، أخذ على الزَّبَّاء كل طريق ، وسدّ عليها كلَّ باب ، ووقف لها فى كل مَهرَب ؛ ومن أجل ذلك أخذ يرقُبُ ويتجسَّس ويستطلع ، وهو يتظاهرُ بالمودة للملكة ، وبالخصام لعمرو بن عدى ، كى تطمئنَّ له الملكةُ وتأمنَ جانبَه . . .

فلما طال مُقامُه بأرض الحُضْر ، وأمِنت الملكةُ شرَّه ووثقت به ؛ أراد أن يحتالَ حيلةً لتزدادَ اطمئنانًا إليه وثقةً به . وليزدادَ هو حُظْوةً عندها وقربًا منها ، حتى يعرفَ سرَّ النفق والسرداب والأبواب الخفيّة ؛ فقال لها يومًا : يا مولاتى ، لقد صنعت معى جميلا عظيمًا ،

وأريدُ أن أعبِّرَ لك عن شكرى واعترافى بذلك الجميل ؛ وإن لى بالعراق مالاً جمًّا وذخائرَ نفيسةً لا تصلُحُ إلا للملوك ، ولكنى بعيدٌ عن كل ذلك ، لا أستطيعُ وصولا إليه ، لأنى لا أملكُ حيلةً ولا وسيلة ؛ فلو أنك منحتينى فَضلةً من مالك ، أتعلَّلُ بها فى التجارة ، وأجعلها سببًا للوصول إلى مالى هناك ، لعُدْتُ إليك بما أقدِرُ عليه من ذلك ، فأجعلَه كلَّه لك جزاءَ ما أكرمتينى وأسبَغْتِ علىّ من عطفك وبرك وحمايتك !

قالت الملكة : إن كان هذا هو كل ما تريدُ يا قصير ، فإن لك من مالى ما شئت ، تذهبُ به آمنًا وتعودُ غانمًا . . .

ثم دفعت إليه قدراً غيرَ قليل من مالها ، فحمله إلى العراق فأقام فيها فترة ؛ ثم عاد بمال جَمّ وطرائفَ غالية وجواهرَ مُنتَقاة ، تبلغ قيمتها أضعافَ ما أخذ من الملكة ، فدفع ذلك كلَّه إليها وقال لها : هذا كله لك يا مولاتى ، ليس لى منه شىء ؛ لأنه ربح ما اتَّجرتُ فيه من مالك !

فأُعجبت الملكةُ بما حمل إليها من ذاك المال وتلك الطرائف ، وسَرَّها إخلاصُه وأمانته ؛ وزادها ذلك ثقةً به ، واطمئنانًا إليه ، حتى صار من أقرب أتباعها إليها ، ومن أعظمهم حُظوةً لديها . . .

ولكن قصيراً لم يقنَعْ بما وصل إليه من تلك المكانة ؛ إذ كان يطمعُ فى مزيد من القُربَى إليها ، كى يعرفَ كلَّ أسرارها ، ويطَّلعَ على كل ما تُخفى من أمورها ؛ فانتهز فرصةً أخرى وقال لها : يا مولاتى ، نحن اليومَ فى مَوسم تروجُ فيه المتاجرُ فى بلاد كِسْرَى ، فلو أنك وضعت فى يدى مالا ، وأذِنت لى فى الذهاب إلى « المدائن » ، لعدتُ

إليك بما لا يُعَدُّ ولا يوزَنُ من المال والجواهر والطرائف الكِسْرَوِيَّة !

وتذكرت الملكةُ ما عاد به قصيرٌ فى سَفْرته الأولى ، فَطَمِعت فى مزيد من الربح ، ودفعت إليه ما طلب من المال ؛ فحمله إلى بلاد كسرى ، فأقام فيها فترة ؛ ثم عاد بأحمال من القَزّ والديباج ، ومن الدُّرّ والجواهر ، ومن الطرائف والتحف ؛ فكادت الملكةُ تطيرُ من شدة الفرح ، وزادتْه تقريبًا وحُظوة ، حتى صار أقربَ إليها من كل قريب ، وأعزَّ من كل عزيز ، وأحظَى من كل صاحب حُظوة . . .

حينذاك قال قصيرٌ لنفسه : الآن قد تهيَّأت الفرصةُ لأرسُمَ خُطَتى وأدبرَ أمرى ، وأنتقمَ لمليكى من الملكة الباغية ؛ ولكن ، صبراً يا قصيرُ ، حتى تأخذَ عليها كل سبيل إلى الفرار . . . . . .

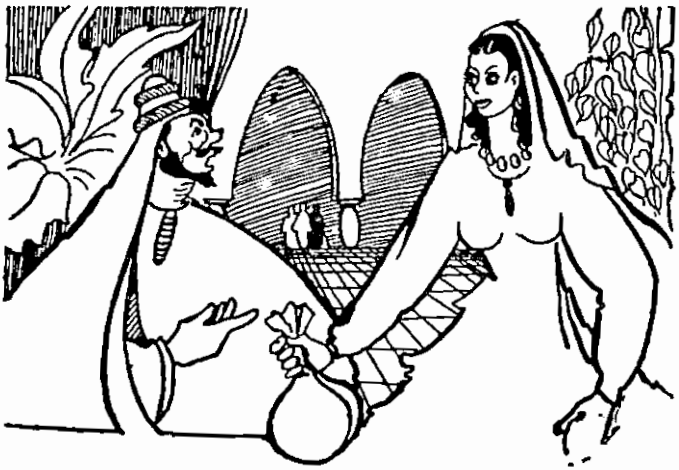

١٠

فلما بلغ قصيرٌ من نفسِها هذا المبلغ . أخذ يتجسَّسُ حتى عرف أبوابَ القصر ومخارجَه . والنفقَ الذى تلتجئُ إليه . والبابَ السرّىَ الذى تنفُذُ منه ؛ فرسم خُطتَه كاملةً للانتقام . وأخذ ينتظرُ الفرصةَ الملائمةَ لتنفيذها ؛ والملكةُ واثقةٌ به . غافلةٌ عن تدبيره . تظنُّه من أتباعها المخلصين . ومن رجالها الناصحين . . . وكيف يدخلُ فى عقلها أنه من أتباع ملك الحيرة ، بعد أن جدَع ذلك الملكُ أنفَه . وشوَّه وجهَه ، وسلب مالَه . وأبعده عن عيالِه ، ونفاه عن بلاده ! . . .

وهكذا تجمَّعت الأسبابُ لنجاح خطة قصير . ولم يبق إلا انتظارُ الفرصة الملائمة للتنفيذ . . .

وذات يوم بدا للملكة أن ترسلَ فرقةً من الجيش إلى الشام . لتحاربَ بعضَ أعدائها هناك ؛ وكان قصيرٌ قد أصبح صديقَها ومُشيرَها ؛ فقالت له : ما رأيك يا قصيرُ فى الخُطة التى نرسُمها للحرب ؛ فإنك ذو عقل ذكىّ وبَصَر نافذ وتجربة كبيرة !

فابتسم قصير وقال : أشكرُك يا مولاتى على ثقتك بى ، وثنائك علىّ ؛ وأرجو أن تنتظرى علىّ قليلا حتى أفكرَ فى الأمر ، وأدرُسَ الخطة ، ثم أرى لك الرأىَ الذى يضمَنُ لنا الانتصارَ فى حرب الشام . . .

ثم إن قصيراً خلا إلى نفسِه يفكرُ فى هذا الأمر الجديد ، فرأى

الفرصةَ سانحةً لتنفيذ الخطة التى يبيّتَها للانتقام ؛ فذهب إلى الملكة فقال لها : يا مولاتى قد فكرت فى هذا الأمر ، ودرستُ الموضوعَ من كل جوانبه ؛ فبدا لى أن جيشَك فى حاجة إلى مزيد من الزاد والعتاد والسلاح ، وإلى كثير من النفقة ؛ وإنى أريدُ أن أبرهنَ لك على إخلاصى ، وعرفانى بالجميل . ووفائى بحق الجوار ؛ فأزودَ جيشَك بما ينقُصُه من الأسلحة والعتاد ! . . .

قالت : ومن أين لك ذلك يا قصير ؟

قال : إننى يا مولاتى ، أملك فى الحيرة خزائنَ مملوءةً بالسيوف والخناجر والدروع وأدوات الحرب ، وهذه المخازنُ لا يعرفُ الطريقَ إليها أحدٌ غيرى ؛ فلو أنى استطعت أن أذهبَ إلى هنالك ، لعدتُ إليك بأكثرَ مما تحتاجين من ذلك ؛ فنضمنَ به النصرَ على أعدائنا فى الشام !

قالت : وكيف تذهبُ إلى هنالك يا قصير ، وكلهم أعداءٌ يتربصون بك ؛ وأخاف عليك أن تذهبَ مخاطراً بنفسك ، فتقعَ فى أيدى أولئك الأعداء فيقتلوك !

قال قصير : إن المالَ يا مولاتى يُذلل كلَّ صعب ، ويُهوّنُ كل عسير ؛ فلو أنى كنت أملك اليومَ مالا ، لاستطعت أن أذهبَ به متخفيًا إلى الحيرة ، فأستعينَ به على الوصول إلى خزائنى ومخازنى ، وأعودَ بكل ما أريدُ من غير أن يدرىَ بى أحد !

أطرقت الملكة برهةً تفكر ، وهى تسألُ نفسها : أتعطيه ما يحتاجُ

إليه من المال ، أم تدعُ هذه الخطة وتسكت ؟ وعرف قصيرٌ بذكائه ما يدُور فى خاطرها ، فقال لها : ثم إننى يا مولاتى أخافُ أمراً آخرَ شدَّ خطراً وأسوأ نتيجة ؛ فإن عمرو بن عدىّ ملكَ الحيرة لو عرف مكانَ هذه الذخائر التى أخفيها ، لاستولى عليها ، وسلح جيشَه بها ، ثم استعدَّ لحربك كى ينتقمَ لخاله منك ، ولا أضمنُ بعد ذلك أن نتغلَّبَ عليه ؛ فالرأىُ عندى أن نحتالَ للوصول إلى هذه الذخائر ، قبل أن يستولىَ عليها فيزدادَ قوةً علينا ، ونظل ضعفاءَ عن مقاومته ! . . .

قالت الملكة : أخاف يا قصيرُ أن تُخفِقَ خطتُك ، وأن تقعَ عليك أعينُ أعدائك ؛ فلا تكون نتيجةُ ذلك إلا الخسارةَ علينا وعليك !

قال قصير : لا تخافى شيئًا يا مولاتى ، فإنى أعرف كيف أحتالُ لأمرى ، وأتوقَّى لبلوغ غرضى !

وكان بعضُ مستشارى الملكة جالسين يستمعون إلى الحديث بينها وبين قصير ؛ فهمس أحدُهم فى أذنها : إننى خائفٌ من عاقبة هذه الخطة يا مولاتى ، وأخشى أن تنتهىَ بنا إلى شر !

فالتفتت إليه الملكة مُغضبَةً وقالت له : وماذا تكونُ هذه العاقبةُ التى تخافُها وتخشى نهايتها علينا ؟ إنه لو وقع فى أيدى أعدائه ، لهلك وحدَه ولم ينته إلينا شرّ ؛ أما إذا نجح فى مهمته وعاد ، فإننا سنكسبُ من ورائه خيراً عميمًا ؛ أما المال الذى يطلبُه فليس يهمنا كثيراً أن يضيعَ هدَراً ، أو أن يعود إلينا بأعظمَ منه ؛ ولا يليقُ أن يبخلَ الملوكُ بالمال ، فى سبيل ما يطلبون لبلادهم من الخير !

ثم إن الملكةَ دفعت إلى قصير كل ما طلبه من المال ، وقالت له : اذهبْ لأمرك محروسًا بعناية الله ، وقلوبُنا معك !

فحمل قصيرٌ المال ، وخرج من ساعته إلى الحيرة ، وقلبه يرقصُ طربًا لنجاح خُطته . . .

أما الملكةَ فجلست فى قصرها الفخم ، المطلّ على شاطئْ الفُرات ، تفكرُ وتدبر ، وتنتظرُ الساعةَ التى يعودُ فيها قصيرٌ بما يملكُ من الذخائر والعتاد ، وتحلُمُ بالانتصار على سائر أعدائها ، فى الشام والعراق وجميع الممالك . . . .

١١

لم يتَخفَّ قصيرٌ ولم يتنكَّرْ ، بل قصد من فَوْره إلى عمرو بن عدى ، ملك الحيرة ، وهو يحملُ ما أخذه من مال الزَّبَّاء ، فوضعه بين يدَى الملك وقال له : هذه أولُ غنيمة من مال الزَّبَّاء خطفتها بالحيلة ، ولم يبق إلا أن نخطفَ روحَها من بين جنبَيْها !

قال الملكُ والسرورُ ظاهرٌ على وجهه : لله أنت يا قصير ! بالله كيف وصلت بحيلتك إلى كل هذا ؟

قال قصير : لا تسألْنى الآن يا مولاى ، فإن الوقتَ لا يتَّسعُ للحديث ، وأرجو أن تُصدرَ أمرَك إلى قائد الجيش ، ليدعُوَ ألفين من

أقوى الجنود وأصبرِهم على شدائد الحرب ، ويُحضرَ ألفًا من الجمال القوية على الحمل ومشقات الصحراء ، وألفين من الغرائر التى تُحمَل فيها البضائعُ إلى الأسواق ؛ فإنى قد دَبَّرتُ خطةً عظيمةً للقضاء على الزباء وتخريب بلادها ! . . .

سمع الملكُ قولَ قصير ، فدعا قائدَ الجيش ، وأمره بتنفيذ ما طلبه قصير ؛ فما هى إلا أيام ، حتى كان فى الساحة الكبرى ألفان من الجنود الأقوياء ، وألفان من الغرائر ، وألفُ بعير من خير الإبل ، وكلُّ جندى يحملُ سلاحَه كاملا ! فلما رأى قصيرٌ كلَّ ذلك حاضراً ، صاح بالجند ؛ فأمر كلا منهم أن يدخلَ فى غرارة من تلك الغرائر ، ومعه سلاحه ، ثم ربط رؤوسَ الغرائر كما تُربَطُ أكياسُ القطن ، وحملها على الجمال كما تُحمَلُ البضاعة ، على كل جمل غرارتان متدلّيتان على جانبيه ؛ فصار كلُّ من يرى هذا المنظر ، يظن أن الجمالَ تحملُ بضائعَ لتذهبَ إلى السوق . . .

وكان قصيرٌ قد اتفق مع الجند على علامة معيَّنة ، إذا سمعوها شقُّوا الغرائرَ وخرجوا منها وفى أيديهم أسلحتُهم ؛ فلما تم تدبير الأمر على هذا الوجه ، وعرف كلُّ جندىٍّ فى غِرارته ما عليه من الواجب فى اللحظة المتفَق عليها ، سار موكبُ الجمال فى طريقه إلى الحَضْر ، وهو يحملُ الغرائرَ المشحونةَ بالرجال المسلحين . . .

ولم يزل الموكبُ ماشيًا ، حتى بلغ مدينةَ الحضر ، وكانت الزباءُ

جالسةً فى قصرها تتلقّى الأنباء ، فجاءها البشير بأن قصيراً قد وصل إلى أطراف المدينة ، وهو يقودُ ألفَ بعير محمّلةً بالأسلحة ؛ ففرحت فرحًا عظيمًا ، ووقفت فى شرفتها تنظرُ إلى الإبل وهى قادمةٌ من بعيد ، تتهادَى بأحمالها : فقالت لنفسها فرحانة : ما أعظمَ ما جاء به قصير . . . والله إنه لبَطل !

وظلت الجمالُ تتهادَى فى سيرها بطيئة ، والملكة ترقُبُها من الشرفة وقلبُها مملوءٌ بالثقة والأمل ! ولكنها لم تلبث أن لاحظت أن القافلةَ تسير ببطء شديد ، فخفَق قلبها وقالت :

ما للجمال ميشُها وَئيدا أجَنْدَلاً يَحمِلْن أم حديدا ؟

فقال واحد من أصحابها والقلقُ ظاهرٌ على وجهه : أخشى أن يكون الموتُ الأحمرُ فى تلك الغرائر يا مولاتى !

قالت الملكة مغضَبة : الموتُ الأحمرُ لأعدائنا يا مشئوم !

قال : أرجو ذلك يا مولاتى ، ولكنى أخشى . . . فإنى لا آمَنُ مكرَ قصير ، وقد كان أحبَّ أتباع جذيمةَ إليه !

وكانت الإبلُ قد توسطت المدينةَ وتجمعت . . . حينذاك صاح قصير تلك الصيحةَ التى كان متفقًا عليها ، فأمسك كلُّ جندى خنجرَه وشق به الغرارةَ التى كان فيها ! . . . فما هى إلا لمحةُ الطَّرْف ، حتى كان بجانب كل بعير جنديان فى أتم سلاح وعدة ، وقد رفعوا السيوف يلمعُ بريقُها تحت الشمس ، وهم يهتفون بصوت رجل واحد : الثأر لجذيمة ! الموت للزَّبَّاء !

وطرق الهُتافُ سمعَ الملكة ، فصاحت وهى تتلفّتُ حواليها : يا لها من خُدْعة ! الدفاعَ يا رجال ! أيها القادة ! أيها الجنود !

ولكنها لم تجدْ حولها جنوداً ولا قادة ، فقد كان الأمرُ مفاجئًا ، فملأ الرعبُ كلَّ قلب فى المدينة ، وفر الجميعُ مذعورين أمام الجيش الزاحف . . .

وأيقنت الملكةُ بالهلاك ، بعد أن انصرف عنها كلُّ مَن حواليها من الأتباع والحراس ، فأسرعت إلى باب النَّفَق السرّى لتهرُب ؛ ولكن قصيراً كان قد أعد عُدتَه ليحولَ بينها وبين الهرب ، فأرسل طائفةً من الجند ليتربّصوا لها عند باب النفق ؛ فلم تكد تصل إليه حتى رأت سيوفَ الجند تسدُّ الباب ، وتحولُ بينها وبين الفرار . . .

ولمع بريقُ الموت فى عينى الملكة ، وتخيَّلَتْ نفسَها أسيرةً فى يد عمرو بن عدى ، يساومها على حياتها ، ثم يقتلُها كما قتلت خالَه جذيمة ، فقالت لنفسها : الموتُ ولا العار ، وبيدى لا بيد عمرو !

ثم همَّت أن تقتلَ نفسها ، لتنجوَ بشرفها ، ولكن قصيراً أدركها ، وأهوى على رأسها بالسيف ، وانتقم لمليكه جذيمة الأبرش ؛ ثم استولى على قصرها ، وخزائنها وجواهرها وعرشِها ، وخرّب بلادها .

ولم تزل آثار « الحُضْر » باقيةً إلى اليوم ، على حدود الشام ، ينقّبُ عنها علماء الآثار ويقولون : كان هنا فى قديم الزمان مملكةٌ عربيةٌ عظيمة ، خرَّبَتْها المطامع ، وأباد أهلَها الحرصُ على طلب الثأر !

الولد الشريد

١

كان « جابرٌ » شاباً فى العشرين من عمره ، وكان طيبَ القلب ، كريمَ النفس ، مهذَّبَ الخلق ، صادقَ الحديث ؛ ولكنه مع ذلكَ كان سريعَ الحكم على الأشياء ، لا يتأنَّى ولا يتبصَّرُ قبل أن يقطعَ بالرأى فى أمر من الأمور . . .

وكان أبوه تاجراً من كبار التجار ، له مخازن كثيرةٌ فى أنحاء شتَّى من المدينة ، وله عملاء كثيرون فى كل بلد من البلاد ؛ وكان مسموعاً بالغنى والجاه وحُسن المعاملة . . .

وكان جابرٌ يعملُ حاسباً فى تجارة أبيه ، يرصُدُ الواردَ والمنصرف ، ويحفظُ مِفتاحَ الخزانة ، ويسجل فى دفاتره كلَّ حركة من حركات التجارة ؛ وكان أبوه يدرُسُ تلك الدفاترَ فى كل شهر مرة ، ويتفقَّدُ الخزانة ، ليعرف مَدَى مطابقة الحساب المكتوب فى الدفاتر ، للأموال المودَعة فى الخزانة ؛ ولم يكن جابرٌ يأخذُ مليما واحداً من الخزانة إلا بإذن أبيه ، أو بأمر منه ؛ وكان سعيداً بذلك كلَّ السعادة ، لأن المرتَّب الذى كان أبوه يعطيه إياه فى كل شهر ، كان يكفيه ويزيدُ على حاجته فى كثير من الأحيان . . .

وكان لجابر صديقٌ فى مثل سنه ، اسمه « موهوب » يُشبهُه فى طيبة القلب ، وكرم النفس ، ودَماثة الخلق ، وصدق الحديث ؛ ولكنه كان فقيراً محدودَ الرزق ، لا يكادُ يَكسِبُ من عمله إلا ما يكفيه هو وأمَّه العجوز ؛ ولكن فقره لم يَمنعْ جابراً من مصادقته ، فقد كانا رفيقين منذ الطفولة ، لم يفترقا منذ تَعارفا ؟ وكان موهوبٌ إلى ذلك عفيفاً غنىَّ النفس ، لم يخطُرْ بباله مرةً واحدةً أن يَستفيدَ من غنى صديقه جابر . . .

وذات يوم مَرضت أمُّ موهوب ، ولزمتْ فراشَها ، فدعا الطبيبَ ليراها ؛ فأخبره أنها بحاجة إلى جراحة عاجلة فى المستشفى ، وإلا تعرضتْ حياتها للخطر الشديد !

سمع موهوبٌ كلامَ الطبيب ، فاغتمَّ غمًّا شديداً ، لأنه لم يكن معه مالٌ لأجرة الجرَّاح ، ونفقة المستشفى ؛ ولم يَهُنْ عليه أن يدَعَ أمَّه مريضةً مُشرفةً على الخطر ، ولا يحاولَ علاجها ؛ فخطر بباله لأول مرة فى حياته ، أن يخرجَ من هذه الأزمة الخانقة ، باقتراض بعض المال من صديقه جابر . . .

ذهب موهوبٌ إلى جابر ، ليقترضَ منه أجرةَ الجرَّاح ونفقة المستشفى ، ولكنه لم يكد يُقابلُ صديقه ، حتى عَقَلَ الخجلُ لسانَه ، فجلس صامتًا لا يفتحُ فمه بكلمة ، والهمُّ باد على وجهه ؛ فلحظ جابرٌ ما به ، وسأله عن سبب سُكاتِه ، وما يبدو على وجهه من الهم والغمّ ؛ فتغرْغرَت عيناه بالدموع ولم يستطعْ جواباً ؛ ولكنَّ جابراً لم يزلْ

يحاورُه ويداوره ، ويتبسطُ معه فى الحديث ، ويحتال عليه فى السؤال ، حتى عرف قصتَه ؛ فربَّتَ كتفَه وهو يقول له : لا تحزَنْ يا صديقى ، فإن وراءَ كل ضيق فرجًا ، واللهُ يُعينُك !

ثم صمت جابرٌ برهةً وهو يفكرُ فى الأمر ؛ لأنه لم يكن يملكُ تلك اللحظة إلا قليلا من المال ، لا يُغنى شيئًا فى مواجهة هذه الحالة ؛ ولم يكن من عادتِه أن يطلُبَ من أبيه شيئًا من المال ، لمثل هذا الغرض . . .

ولحَظَ موهوبٌ صمتَه وتفكيرَه ، فقال له : لا تُتعِبْ نفسَك يا صديقى بالتفكير فى هذا الأمر ؛ فلعلَّ اللهَ أن يأتىَ بالفرج من حيث لا نحتَسب . . . . . .

ثم صمَتَ لحظةً واستأنف قائلا : لو أن هذا المرضَ الذى بَغَتَ أبى قد تأخَّر ثلاثةَ أسابيع ، لما وجدتُنى فى هذه الأزمة ، ولا حملتُ همًّا ؛ فإننى أنتظرُ مالاً يأتينى بعد عشرين يومًا . . .

سمع جابر هذه الكلمة ، فابتدرَ صاحبَه قائلا وقد خطر له خاطر : تقول إن مالاً سيأتيك قبل تمام هذا الشهر ؟

قال موهوب : نعم ، فإن معى صَكًّا على بعض المصارف ، يستحقُّ السدادَ بعد عشرين يومًا . . .

قال جابر : فقد انحلت المشكلةُ إذن ؛ فإننى أستطيعُ أن أدفعَ لك اليومَ كلَّ ما تطلبُ من المال ، على أن تؤديَه إلىَّ قبلَ تمام الشهر . . .

٢

لم يعلمْ موهوبٌ أن صديقَه قد أخذ المالَ الذى دفعه إليه ، من خزانة أبيه بغير علمِه ؛ ولو أنه كان يعلمُ ذلك ، لردَّه إليه ولم يقبلْ منه مليمًا . . .

ولم يكن جابرٌ يعلمُ حين دفع إليه ذلك المالَ من خزانة أبيه ، أن الظروفَ السَّيئةَ تتربَّصُ بصديقه ، فلن يستطيعَ سدادَ الدين فى الموعد الذى حدَّده ؛ ولو أنه كان يعلمُ ذلك ، لتروَّى كثيراً قبل أن يمدَّ يده إلى خزانة التجارة ، ليأخذَ منها مليمًا . . .

ولكن الظروفَ السَّيئةَ من ناحية ، وسرعتَه فى الحكم على الأشياء من ناحية أخرى . قد أوقعتاه فى أزمة أخرى ، أشدَّ من الأزمة التى أنقذَ منها صديقَه ؛ فقد حلَّ الميعاد ولم يؤد موهوبٌ دَينَه ، لأن المالَ الذى كان ينتظرُه لم يأت ؛ ثم مضى بعد الميعاد أيامٌ ولم يستطعْ موهوبٌ أداءَ الدين ؛ وحان الموعدُ الذى يتفقَّدُ فيه أبوه الخزانة ، قبل أن يردَّ جابرٌ إليها المالَ الذى أخذه بلا إذن . . .

ولم يلبثْ أبوه أن اكتشف نقصَ المال فى الخزانة . فقلق من أجل ذلك قلقًا شديداً ، وخطرَ بباله أن ولدَه يسيءُ التصرُّفَ فى مالِه ، وأن نزَواتِ الشباب غلبتْه على عقلِه . فمدَّ يده إلى مال أبيه ؛ فساءه ذلك وغمَّه ، وذهب إلى جابر فسأله فى غضب : أنت أخذت مالا من الخزانة بلا إذن ! . . .

فأجابه وهو مطأطئُ الرأس : نعم ! . . .

فقال له أبوه وقد اشتد به الغيظ : اغْرُبْ من وجهى يا فاسد . فلستُ أريدُ أن أراك ! . . .

فخرج جابرٌ من الدار مطروداً . والحزنُ يعصرُ قلبه . والدموعُ تتقاطرُ من عينيه . . . . . .

٣

كان الليلُ قد بدأ ، حين خرج جابرٌ من دار أبيه مطروداً ، حزينًا يائسًا ، قد ضاقت الدنيا فى وجهه ، وجثَم الهمُّ كالجبل الراسخ على صدره ؛ ولم يكن يدرى : أيلومُ صديقَه . لأنه هو الذى دفع به إلى هذه الخاتمة المؤلمة ؛ أم يلومُ نفسَه ، لأنه تصرَّف فى الأمر بغير تبصُّر ولا رويَّة . . .

وكان أشدَّ ما يؤلمه ، أن يظنَّ أبوه أنه لص يخونُه فى ماله ، لأنه

لم يخبرْه بالسبب الذى حمله على أخذ المال من الخزانة ؛ ولكن ، هل يُعفيه من اللوم أنه أخذ المالَ لغيره لا لنفسه ؟ إنه مالُ أبيه لا مالُه ؛ فليس من حقه أن يمُدَّ يده إليه بغير إذن من صاحبه ، ولو كان صاحبُه هو أباه . . . . . .

كان جابرُ يفكرُ على هذا النحو ، وهو ماض فى طريقه ، وظلامُ الليل يكتنفُه ، والأوهامُ تنهَشُ قلبَه ؛ ولكنه لم يكد يبتعدُ عن الدار بضعَ خطَوات ، حتى التفت إليها حزينًا ، كأنما أراد أن يودعَها بآخر نظرة ، قبل أن يبتلعَه الظلام ، فى ذلك الطريق الطويل ، الذى لا يعرفُ له غايةً ولا نهاية . . . . . .

ولم يكن فى جيب جابر حين خرج من دار أبيه ، إلا بضعةُ جنيهات ؛ ولكن ثيابَه كانت تدُلُّ على غنىً وجاه وثروة ، وهيئته تخدعُ من ينظرُ إليه ، فيظنه سيداً من السادة ، أو أميراً من الأمراء !

وابتسم جابرٌ ابتسامةَ الألم والحسرة ، حين تنبَّه إلى هذا التناقض الشديد بينَ مَظهَره ومَخبره ؛ ولكن الابتسامةَ لم تلبث أن انقلبت إلى عُبوس وانقباض ، حين تذكَّر أنه ماض فى طريق لا آخرَ له ، وأنه لا يعرفُ ماذا سيكونُ شأنُه فى غَده . . .

ولم يزل جابرٌ سائراً ، حتى غادر المدينةَ وظلَّلته أشجارُ الغابة ؛ وكان الظلامُ الحالكُ يزيدُه انقباضًا وعُبوسًا ويأسًا ؛ ولكن القمرَ لم يلبث أن أشرق بنوره الفِضىّ ، فبعث فى نفسه شيئًا من الأمل والطمأنينة .

وأحسَّ بالجوع يقرُصُ أمعاءه ؛ فقد فات ميعادُ عشائه ، وقد تعوَّد منذ سنين ألا يتأخرَ عن موعد الطعام ! . . .

ثم اشتد به الجوع ، حتى لو أنه عثَر بكِسرة خُبز على الطريق ؛ لمال عليها يلتهِمها التهامًا . . .

وفجأةً سمع وقعَ خطوات وراءه ، كأن شخصًا يجدُّ فى أثَره ليستوقفَه ؛ فاستدار لينظر ، فإذا رجلٌ طويلٌ ، عريضٌ ، ضَخْم ، قد أمسك بيده مسدَّسًا يصوبُه إلى صدره ، وهو يقول فى لهجة جافية خشنة : لا تحاول المقاومة !

كان المنظرُ راعبًا ، يجمَدُ له الدمُ فى عروق الشجاع ؛ ولكن الجوعَ الشديدَ الذى كان يقرُص أمعاءَ جابر ، قد أنساه الخوفَ ؛ فصاح بالرجل صيحةً مجنونة يقول : إننى جوعان ؛ فهل معك طعام !

وكان لهذه الكلمة تأثيرٌ مفاجئٌ على الرجل ؛ فإنه لم يكن يتوقَّعُ قطّ ، فى هذا الموقف الرهيب ، أن يطلبَ الشابُّ منه طعامًا ، وهو يهددُه بالموت ؛ فارتخَتْ ذراعُه بالمسدس وهو يقول : قل لى : من أنت ؟ فإن الجياعَ المحرومين لا يرتدُون مثلَ هذه الثياب الأنيقة ، ولا يمشون فى هذا الظلام الدامس ، إلا إذا كانوا مثلى ومثلك . . . أيها الزميل !

قال جابرٌ كالمذهول ، وكأنه لا يدرى بم تتحرَّكُ شفتاه : مثلى !

قال الرجل وهو يتأبَّطُ ذراعَه ويصحَبُه على الطريق ، كأنه صديق : نعم ، مثلك أيها الزميلُ الشجاع ، فاصحَبْنى ! . . .

وانقاد له جابر بلا وعى ، واسأنف الرجل قائلا : ثقْ بى أيها الزميل . . . هل معك مال ؟

قال جابر ولم يزل فى ذهوله ، وذراعُه فى ذراع الرجل : معى قليل ، ولكنه يكفى لشراء طعام ، إن كان لديك شىءٌ من الطعام . . . لقد طردنى أبى من داره ، ولم يكن معى إلا قليلٌ من المال . . . ولكن ، قل لى : من أنت ؟ . . .

قال الرجل : أنا « المقَصُّ » المشهور . ولكنى لن أغتصبَ مالَك . لا ، بل تعال معى ، فأنت ضيفى الليلة !

قال جابر : المقصّ ؟ ماذا تعنى ؟ . . .

قال الرجل : المقصّ . . . الذى يجُذُّ الأعشاب ، ويُقلمُ الأشجار . ويسوى أسوارَ الحدائق فيجعلُها نظيفةً مهذبة . . . وأكثر من ذلك ، ينظفُ جيوبَ الأغنياء من المال ! . . .

٤

سار جابرٌ مع الرجل ، وهو شاردُ الفكر ، موزَّعُ العواطف ، لا يدرى أين يتَّجِهُ به ؛ فما زالا سائرين حتى بلغا أجمَةً تُظللُها أشجارٌ كثيفة ، فبدت لهما خَيْمةٌ منصوبة ، ونارٌ مشتعلة ، وهبَّ عليهما منها ريحُ شِوَاء ، فدخلا فيها . . .

جلس جابرٌ يأكل ، حتى امتلأ بطنُه ، فلما أحسّ بالشبَع ، استأذن لينام . . .

وشعر جابرٌ حين استيقظ فى صباح اليوم التالى ، بوحشة المكان ، وخلوه من السكان ، فبدا على وجهه الضيقُ والقلق ؛ ولكن المقصّ قال له وهو يبتسم : هذا خيرُ مكان يا رفيقى ، تستطيعُ أن تنظفَ فيه جيوبَ الأغنياء ، دون أن يشعر بك أحد ! . . .

ولم يكد الرجلُ يفرغُ من كلامه ، حتى ظهر عند مُنْحَنَى الطريق شابٌّ أنيق ، يمتطى جواداً أصيلا ، وتبدو عليه مظاهرُ الغنى والثراء ؛ فتهيأ المقصُّ للعمل وهو يقول : هذا صيدٌ سمين ، على بَختِك أيها الزميل

وقبل أن يفكرَ جابرٌ فيما سيحدث ، كان اللصُّ قد وثب فاعترض طريقَ الشاب ، وصوّب مسدسَه إلى صدره وهو يقول فى لهجة قاطعى الطريق : مالَك ، أو حياتَك ! ..

شحَب لونُ الشاب ، حين رأى المسدسَ مصوَّبًا إلى صدره ، وارتعشت يداه ، وبدا عليه الرعبُ والفزع ، وعَقَل الخوفُ لسانَه فلم ينطقْ حرفًا . . .

وكان جابر غيرَ بعيد من هذا المنظر ، يرى ويسمع ، فلم يلبث أن ارتدّ إليه وَعْيُه ، فوثب

وثبةً قوية ، فإذا هو إلى جانب المقصّ ، فضربه ضربةً شديدةً ألقته على الأرض ، وأطارت المسدّسَ من يده ، ولكنّ قذيفةً طائشةً انطلقتْ منه ، وأصابت الشاب ، فسقط عن جواده والدمُ ينزفُ منه . . .

وذُهل جابر ، فوقف لحظة متحيراً ، ولكنه لم يلبث أن لمح عَرَبتين قادمتين على الطريق ؛ وكأنما خُيل إليه أنهما تحملان فرقةً من الشُّرَط ؛ فخاف أن يُضبَطَ مُتَّهَمًا بجريمة قتل ، فأسلم ساقَيْه للريح وانطلق يعدو . . .

واستمر جابرٌ يعدو ، لا يريدُ أن يقف ، ولا أن ينظرَ وراءه ؛ لقد قتل شابًّا بريئًا ؛ فما جزاؤه على ذلك إلا أن يموتَ مشنوقًا ، أو يُلقَى به فى ظلمات سجن مؤبَّد ، لا يرى نورَ السماء ، ولا يُحس طعمَ الحياة ؛ ولقد كان أبوه يتهمُه بالسرقة ، فطرده من داره ؛ فكيف تكونُ حالُه لو علم أن ولده متَّهمٌ كذلك بالقتل ؟ يا لَلخزْى والعار ! إن أباه رجلٌ كريم ، نقىُّ السمعة ؛ فليس ينبغى أن يلطخَ سمعته .

وبدا له أن يهرُب . . .

واستمر يعدو ، لا يريدُ أن يقفَ ولا أن ينظرَ وراءه . . .

وتورَّمتْ قدماه من شدة الجرى ، وابتلَّتْ ثيابُه من كثرة العرَق ، ولكنه استمر يعدو . . . . . .

وانتهى به العدْوُ إلى غابة صغيرة ، كثيفة الظلام ، يجرى بين أشجارها جدْولُ ماء صغير ؛ فجلس فى ظلها ، وخلع حذاءه وجَوْرَبَه ثم استلقى متعَبًا مكدوداً وكلُّ عِرْق فى جسده ينبِض ؛ فلم يلبث أن استغرقَ فى نوم عميق !

٥

واستيقظ من نومِه وقد خيَّم الليلُ بظلامه على الغابة ، فاطمأن بعضَ الاطمئنان ، ولكنه كان جائعًا أشدَّ الجوع ؛ ولم يكن بالغابة شيءٌ يؤكل ، فخرج من الغابة يبحثُ عن طعام . . .

ورأى على بُعد فُندقًا صغيراً ، تحيطُ به حديقةٌ جميلة ، قد تدلت الثمارُ من أشجارها ناضجةً شهيَّة ؛ فقصد إلى ذلك الفندق لعله يجدُ به طعامًا ؛ وكان صاحبُ الفندق واقفًا يتحدثُ إلى رجل يركبُ جواداً ؛ فلما اقترب منهما جابر ، سمع بعضَ حديثهما ، فاضطرب اضطرابًا شديداً . . .

لقد كان راكبُ الجواد يسألُ عن شابّ تنطبقُ صفاتُه على « جابر » نفسه . . .

إذن فهم يُطاردونه ، لأنه قاتل ، والويلُ له إن وقع فى أيديهم !

ولم ينتظرْ جابرٌ حتى يسمعَ بقيةَ حديث الرجلين ، فاستدار ودخل حديقةَ الفُندق من الباب الخلفىّ ؛ ورأى شجرةَ تُفَّاح يتدلَّى منها بعض الثمار ، ولم تكن ثمارُها ناضجةً كبعض الثمار التى رآها من خارج الحديقة ، ولكنه كان جائعًا أشدَّ الجوع ، فلم يبال بعدم نُضجها ، وأخذ يقضِم من ثمراتها ، فما هو إلا قليل حتى أحس بآلام شديدة

فى معدته ؛ لأنه أكل تفاحًا لم ينضج بعد ! . . .

لكنه تحمَّل آلامَه بصبر ، وخرج من حديقة الفندق مُتسللا ، مبتعداً عن الطريق العام ؛ فقد خشىَ أن تقعَ عليه عينُ أحد فيدُلَّ عليه ؛ فاختار أن يكونَ طريقُه بين الحقول . . .

واستمر ماشيًا بين الحقول فى الظلام ، وهو يطَأ الزرع بقدمَيْه ، وأذناه مُرْهَفَتان للسمع ، حتى رأى شبَحًا منتصبًا فى طريقه ؛ فوقف مذعوراً ، لا يتقدَّمُ إلى أمام ، ولا يتأخر إلى وراء ؛ وكان يتوقعُ أن يهجُمَ عليه ذلك الشبحُ القادم ، فيُطْبِقَ على عُنقِه ، أو يقيدَه ويقودَه مغلولا إلى الشرطة ؛ ولكن الشَّبحَ ظل واقفًا فى مكانه ، فلم يتقدمْ كذلك إلى أمام ، ولم يتأخر إلى وراء . . . . . .

وفاء عقـــلُ جابر ، فتقدَّم شجاعًا إلى ذلك الشبح الواقف ؛ فإذا هو ناطورٌ مما يُقيمه الفلاحون فى الحقول ، ليُخيفوا به الطيورَ التى تأكلُ الزرع ؛ فضحك جابرٌ من نفسه ، وعاد إليه بعضُ الاطمئنان . . .

ثم خطرت له فكرة ، فقد رأى ذلك الناطورَ يلبسُ حُلةً قديمةً بالية ، فاستبدلها بحلته الجديدة الأنيقة ، ليُخفيَ مظهرَه على الذين يعرفونه ؛ ثم استأنف سيرَه وهو يلبسُ تلك الحلةَ البالية ، وخلّف الناطورَ وراءه وعليه حلتُه الجديدة ؛ ومشى فى طريقه . . .

ماذا يقول صاحبُ الناطور يا تُرى ، حين يحضُرُ فى الصباح إلى حقله ، فيرى عليه تلك الحلةَ الجديدة ؟

هكذا سأل جابرٌ نفسَه وهو يضحك ، ثم أطبق شفتيه قلقًا ، فقد خطر بباله أن الشرطةَ قد يستدلون بهذه الحلة على طريقه الذى مشى فيه ، فلا يلبثون أن يصلوا إليه ، فيقبضوا عليه . . .

٦

شعر جابرٌ بآلام حادّة فى قدمَيْه ، فجلس يستريحُ على حافة جدول ؛ ثم خلع حذاءَه وجَوْربَه ، وغسل الجوربَ فى ماء الجدول ، ونشره على غصن شجرة ليجفَّ ؛ ثم توسّد ذراعَه ونام ، ولكن النومَ لم يطرُقْ جفونَه ؛ فقد كان قلقًا مضطربًا ، يزعجُه هبوبُ النسيم ، وتخيفُه خشْخشةُ أوراق الشجر ، فيحسَب أن الشرطةَ قد أدركوه وعرفوا مكانَه ، وأنهم سيقبِضون عليه ويقودونه إلى السجن متّهَمًا بالقتل . . .

وكانت الأرضُ صُلبةً تحت جنبه ، والجوعُ يؤلمه إيلامًا شديداً ، والخوفُ والقلقُ يثقلان على صدره ؛ فلم يلبث أن تذكر الحياةَ الناعمةَ التى كان يحياها فى دار أبيه ، والفراشَ الوثيرَ الذى كان ينامُ عليه ، والطعامَ الشهىَّ الذى كان يأكلُه ، والسعادةَ العظيمةَ التى كان يتمتعُ بها ؛ فدمعَتْ عيناه وقال لنفسه : ماذا فعلتُ يا رب حتى ترمينى الأقدارُ فى هذه المتاعب ؟ هل كان من المروءة أن أتركَ أمَّ صديقى مشرقةً على الموت ، ولا أدفعُ له ثمن الدواء ؟

ثم استدرك قائلا : نعم ، نعم ؛ لقد كنت مخطئًا كلَّ الخطأ ، حين مددت يدى إلى خزانة أبى بغير إذنه ؛ ولعله لو عرف قصة أم موهوب لأعطاه ما كان يطلب ، أو لأذن لى فى إعطائه ؛ ولكنى لم أخبرْه . لأدارىَ فقرَ صديقى وحاجتَه ، فكانت هذه الغلطةُ الصغيرة أصلَ متاعبى كلها . . لقد ظنَّنى أبى لصًّا ، وظنَّنى المقص زميلا له من قاطعى الطريق ، ورمتْنى المقاديرُ بتهمة القتل ؛ فأنا فى نظر الناس لصٌّ وقاطعُ طريق ، وقاتل ؛ وأنا من كل ذلكَ برىءٌ ... فاللهم الرحمةَ الرحمة ، والعفوَ العفو ، يا كريمُ يا رحمان !

ولما جفَّ الجوربُ المغسول ، لبسه جابر ، ثم لبس الحذاء ، واستأنف السيرَ إلى حيثُ لا يدرى ؛ ولم يلبث أن أشرف على قرية من القرى ، فأمَّل أن يجدَ فيها طعامًا ومَنامًا ؛ ولكنه خاف إن دخلها أن يعرفَه أحدٌ من أهلها ، فيدُلَّ عليه الشرطة ، فيقبضوا عليه ؛ فاختار أن يدورَ حول القرية ، مفضلا الطريقَ الطويلَ الآمن ، على الطريق القصير الذى لا أمان فيه . . .

وكان فى طرَف القرية بستانٌ كبيرٌ فيه أشجارٌ وثمار ، فدخله جابر ليستترَ بشجره ، ويأكلَ من ثمره ؛ وكان فى جانب من البستان حظيرةٌ من حظائر الدواجن ، فيها أسرابٌ من الوز والبط والدجاج ، وأمامها أوعيةُ الطعام ، تلتهمُ ما فيها بلذة ونَهَم ، فلم يستنكفْ جابرٌ أن يشاطرَها طعامَها ؛ فأكل أكلا غير مُشبع ، ولكنه سد رمقه وخفف بعضَ ما به من ألم الجوع . وكان الهدوءُ مخيمًا حواليه ، فلم تكد تخفُّ حدَّة جوعه ، حتى استرختْ أعضاؤه وراود النومُ أجفانَه ، فبحث عن مكان يأوى إليه ، فوجد كُومةً من القش على مقربة منه ، فدسَّ نفسَه فيها ، واتخذ منها فراشًا وغطاء ، واستتر بها ثم راح فى نوم عميق . . . . . .

واستيقظ جابر بعد ساعة ، على حركات وأصوات قريبة ، فملأ الخوفُ قلبه ، وخُيل إليه أنه يسمعُ همسًا يدورُ بين اثنين ؛ فأيقن أن الشرطةَ قد اقتفَوْا أثرَه حتى وصلوا إلى البستان ، وما هو إلا أن يعثُروا عليه مختبئًا بين القش ؛ وتخيَّل أن شُرْطيًّا غليظًا قاسىَ القلب ،

يقترب منه ويقول له فى غلظة : اخرج من مخبئك أيها اللص القاتل ، فقد عثرنا عليك أخيراً . ولا بد أن تنال جزاءك !

ثم تصور نفسه مقبوضاً عليه . والأغلال فى يديه . والشرطة يحيطون به ، وهم يقودونه فى الطريق إلى السجن ، أو إلى المشنقة ، والناس يشيرون إليه بأصابعهم وهم يقولون : هذا هو اللص ! هذا هو قاطع الطريق ! هذا هو القاتل !

وبينما هو فى تصوراته وأخيلته المزعجة . أحس خطاً تقترب منه ، وجسماً يامس وجهه ؛ فوثب من مكانه يريد أن يفر ، ولكنه لم يجد شرطة . ولا ناساً ، ولا شيئاً مما كان يتخيله ، وإنما وجد قطيعاً من الثيران تحيط بكومة القش . وتدس أنوفها فيها بحثاً عن الطعام ؛ فقد كان ذلك الجانب من البستان مرتعاً لثيران الحرث ، التى يملكها صاحب البستان والمزرعة القريبة منه .

ورفعت الثيران رءوسها حين رأته . ولعلها استعجبت حين رأت إنساناً غريباً فى ذلك المكان الخاص بها . فقد كانت عيونها جميعاً تنظر إليه ، وفى نظراتها معنى الاستغراب والدهشة لرؤية هذا الفضولى الغريب . . .

وعرف جابر سر الهمس والحركات التى كان يسمعها وهو مختبئ فى كومة القش ، فسخر من نفسه ، ودس يديه فى جيبيه ومضى وهو مطأطئ الرأس فى انكسار وذلة ، ليبحث عن مكان آخر يأوى إليه ، غير حظيرة الثيران والدواجن . . .

وغادر البستانَ متخفيًا ، واستأنف سيرَه حول القرية ؛ فلم يلبث أن رَأى مطعمًا صغيراً فى الجانب الآخر من الطريق ، قد ارتبط أمامَه جواد ؛ فقصد إليه لعله يجدُ فيه طعامًا يأكله . . .

٧

جلس جابرٌ إلى مائدة خالية ، وطلب خبزاً ، وبيضًا ، وقهوة ؛ وكان المطعمُ فى تلك اللحظة خاليًا منَ الروَّاد ؛ إذ كان باقيًا على موعد الغداء ساعات ، وكان ذلك من حُسن حظ جابر ؛ ولكنه مع ذلك كان يريدُ أن يفرُغَ من الطعام بسرعة ، قبل أن يدخلَ المطعمَ أحد ، فيعرفَه فيدُلَّ عليه الشرطة . . .

ولكن القهوةَ كانت ساخنة جدًّا ، فأراد أن يُبردَها ، ليشربها بسرعة ، فصبَّها فى الطبق لتبرُد ، ومال عليها ليشرب ؛ وفى تلك اللحظة دخل صاحبُ المطعم ، فجلس على مائدة أخرى أمامه ، وأخذ يُطيلُ النظرَ إليه ، فارتاب جابرٌ وقلِق ، ثم اشتدَّ ارتيابُه وقلقُه حين بسط صاحبُ المطعم بين يديه ورقة ، وأخذ ينظرُ إليها لحظةً وإلى وجه جابر لحظةً أخرى ؛ ثم خطا نحوه خَطوةً وهو يقول له : هل أنت جابر ؟

وفى اللحظة التى سمع فيها جابرٌ هذا السؤال ، هبَّ واقفًا ، وقذف الطبقَ بما فيه من القهوة الساخنة فى وجه صاحب المطعم ، وأسرع نحو الباب ليهرُب ، قبل أن يُفيقَ الرجلُ من ذَهلة المفاجأة فيقبض عليه . . .

وكان الجوادُ لم يزل واقفًا عند باب المطعم ، فوثب جابر على سرجه ، وانطلق يعدو به نحوَ الحقول . . .

ولم يزل الجوادُ يجرى به ، حتى ابتعد كثيراً عن المطعم وصاحبه ، وأمِن المطاردة ، فوقف ليستريحَ لحظات وهو يفكرُ فى أمره . . .

إنه الآن فى الريف ، وأهلُ الريف يعرفُ بعضُهم بعضًا ، فليس يستطيعُ غريبٌ أن يختبئ بينهم ؛ وإن من الخير له أن يقصدَ إلى إحدى المدن المزدحمة ، فيختبئ هنالك حتى يدبرَ أمره ؛ ولكن كيف يذهبُ إلى المدينة وهو فى تلك الثياب المهلهلة ، وتحته ذلك الجوادُ الأصيل ؟ إن الفقراءَ الذين يرتدون مثل هذه الخُلْقان ، لا يمكنُ أن يكونَ لأحدهم مثلُ هذا الجواد ؛ فلا بدَّ أن يُثيرَ منظرُه فُضولَ الناس ، فيتساءلون عنه ، ويتتبَّعون أخبارَه ؛ وما أحرَى ذلك أن يدُلَّ عليه الشرطة !

وانتهى رأيه إلى التخلص من الجواد ، ليكون منظرُه فى المدينة مألوفًا لا يَلفتُ نظر أحد ؛ فترجل عن جواده وتركه يعودُ أدراجَه فى الطريق الذى جاء منه ، ومشى راجلا فى طريقه إلى المدينة . . .

وفى أثناء الطريق ، وجد جابر ورقةً مكتوبًا فيها : « مكافأةٌ عظيمةٌ لمن يقبضُ على رَجلين . . . . . » .

فلم يستطعْ من شدة اضطرابه أن يُتمَّ قراءة ما فى الورقة ، وأسرع يعدو بأقصى ما يستطيع . . .

ولم يلبث أن وصل إلى المدينة ، فقصد إلى السوق العام ، فاشترى

معطفاً من معاطف العمال ، وقبّعة شعبيةً رخيصة ، عريضةَ الحافة ، لتلقيَ ظلاً كثيفاً على وجهه ؛ ولكنه قبل أن يدفعَ للبائع ثمن المعطف والقبعة ، سمع صائحاً يصيحُ خلفه : هذا هو الرجل ! . . .

فارتعشت يداه ، وملأ الخوفُ قلبه ، فترك المعطفَ والقبعةَ بين يدى البائع ، وانطلق يعدو . . .

ولقى فى طريقه زحاماً شديداً ، حول شيخ كبير ، قد وقف فى بعض الميادين على كرسى عال يُلقى موعظة ؛ فاندسّ بين الناس ليضللَ مُطارديه ، وهو لا يسمعُ حرفاً واحداً بما يقولُ الشيخ ، ولا يعى . . .

ووصل الذين كانوا يُطاردونه إلى الميدان ، فتفرقوا فى زحمة الناس يبحثون عنه ، ولكنهم فقدوا أثره ؛ فقد تركهم مُتَغَلْغلين بين الناس ، وأفلت من الجانب الآخر ليتخذَ طريقاً أخرى . . .

ونظر وراءه وهو يحاول ، فرأى مُطارديه يركبون جياداً ، وهو راجلٌ مُتعب لا تكاد تحمله قدماه ؛ فأيقن أن كل محاولاته للفرار ستذهبُ سُدًى ، لأنهم لا بد أن يدركوه مهما كانت الأحوال ، فيقبضوا عليه ، فيسوقوه إلى الشرطة ، ثم إلى السجن أو إلى المشنقة !

إنه متّهم بالسرقة ، والقتل ، وقطع الطريق ؛ فلا نجاة له من تلك الخاتمة السوداء !

لقد وقع فى تلك المآزق كلها من أجل غلطة صغيرة ، وكان يستطيعُ أن يترفعَ عنها ، لولا أن الشيطان وسوسَ له أن يكتمَ الأمرَ عن أبيه ، ليحفظَ لصديقه كرامتَه ؛ ولكن هذه الغلطةَ الصغيرةَ قد

قادته من شر إلى شر ؛ فإذا هو متهمٌ بأشنع جريمة يرتكبُها إنسان ، وإذا هو مهدَّدٌ بالسجن المؤبَّد ، أو بالموت شنقًا ؛ وهكذا تكونُ الجريمةُ الصغيرةُ التى يستهينُ بها الإنسان ، سببًا إلى جرائمَ شنيعة لا يتناولها الغفران . . .

كان جابرٌ يفكرُ فى مثل ذلك ، وهو يمشى بلا وَعْى فى طرق لم يمش فيها ، ولا عهدَ له بها من قبل ، والمطاردون على جيادهم يجِدُّون فى أثره . . .

ولم يلبث أن رأى أمامَه حديقةً كبيرة ، ووجد بابَها مفتوحًا ، فاقتحَمه بلا استئذان ، ليختبئَ خلف بعض الشجرات . . .

٨

كان البستانىُّ واقفًا فى الحديقة ، يعزِقُ بفأسه بعض أصول الشجر ، وإلى جانبه بعض آلات الزراعة ؛ وكان منهمكًا فى عمله ، فلم يلحَظْ دخولَ جابر ولم يُحسَّ به ؛ ومرَّ به جابرٌ على بُعد ، فبدت له فكرةٌ يضلل بها مُطارديه ، إذا بدا لهم أن يدخلوا الحديقةَ للبحث عنه ؛ فاقترب من الرجل بخفَّة ، واحتراس ، لكيلا يتنبَّهَ له ، ثم أخذ من جانبه مقصًّا كبيراً ، مما يستعملُه البستانيون لتهذيب الأشجار ، وتسوية الأسوار ، فحمله وابتعد به عن البستانى سريعًا ، ثم قصد إلى جانب

من السور كثيف الزرع ، وأمسك بالمقص يهذب به ذلك الجانب ، كأنه هو البستانى . . .

وكانت حيلةً بارعةً للتضليل ؛ فقد دخل اثنان من أولئك المطاردين إلى الحديقة ، ومرَّا به وهو يهذبُ السورَ بالمقص ، فلم يشكَّا فيه ، أو يلتفتا إليه ، واستمرَّا ماضييْن فى طريقهما إلى الجانب الآخر ؛ وفرح جابر بنجاح حيلته فى تضليل الرجلين . وهو لا يعلم أن سوءَ الحظّ يتربَّصُ به فى الجانب الآخر ، فلم يكد يلتفتُ بوجهه بعد ذهاب الرجلين ، حتى رأى أمامه مُطارداً ثالثًا ، فالتقَيا وجهًا لوجه ، وعينًا لعين : وصاح به الرجل وهو يمدُّ إليه يده : لا تحاول الفرارَ يا جابر ، فقد وقعت ! . . .

تلفَّت جابرٌ حواليه مذعوراً ، ليبحثَ عن وسيلة للخلاص ؛ ولكن بستانىَّ الحديقة كان قد تنبَّه ، ولفت نظره ما سمع من الأصوات والحركات فتقدم مسرعًا وهو يرفعُ فأسه بيده ، فقد ظنَّ أن أولئك الغرباء لصوصٌ يقصدون العبثَ بالشجر والثمر والزهر . . .

ووجد جابرٌ نفسَه مَحُوطًا بالشر من كل جانب ، وقد أخذ عليه كلُّ سبيل للفرار ؛ ولكنه لم يكن يريدُ أن يأوىَ إلى السجن طولَ حياته ، ولا أن يموتَ على خشبة المشنقة ؛ فلطم الرجلَ الذى أمامه لطمةً مؤلمة ، وشرع يعدو متجهًا نحو الباب الآخر للحديقة ؛ ولكنه لم يكد يصلُ إلى ذلك الباب ، حتى وجد أحد المطاردين واقفًا هنالك ، يسدُّ البابَ بجسمه الغليظ ؛ وقبل أن يتبيَّنَ جابرٌ وجهه أو ملامحه ،

هجم عليه ، ولطمه على وجهه لطمةً أشدَّ إيلاماً ، فسقط على الأرض مَغْمِيًّا عليه ، وانفتح الطريقُ أمام جابر للفرار ؛ ولكن الفلاحَ كان قد وصل قبل أن يُطلقَ جابرٌ ساقَيْه للريح ، فضربه بخشبة الفأس على رأسه ضربةً شديدة ، فوقع كذلك مَغْمِيًّا عليه ، فوق جثة الرجل الآخر . . . . . .

وأفاق جابرٌ بعد ساعات ، فرأى نفسَه راقداً على فراش وثير ، فى حجرة كبيرة ، وقد أحاطت الأربطةُ بوجهه ورأسه ، وبالقرب منه سريرٌ آخر ، قد رقد عليه رجلٌ آخر مربوطُ الوجه والرأس كذلك . . .

وتنبَّه الرجلُ على حركة جابر ، فقال له فى صوتٍ ضعيف : لعلك بخير يا جابر ؟

فأجابه جابرٌ بصوت ضعيف مثلُه : نعم ، بخير ، وأشكرُك !

قال الرجل : لقد آذيتَنى كثيراً يا جابر ، وما كنت أستحقُّ هذا منك ؛ لقد فقدتُ ثلاثةً من قبل ، وقد أفقدتَنى أنت بلطمتِك اثنين آخرَين ، من غير سبب أعرفه ؛ فلماذا ضربتَنى ؟ . . .

قال جابر : أنت . . . كنتَ تُطاردنى فى الحديقة ، وكنت أريدُ أن أهرُب ؛ فليس من الهين على شاب مثلى أن يدخلَ السجنَ طائعاً ! . . .

ثم قام من فراشه يحاول الفرار ، ولكنه شعر بدوار وضعف شديد ، فارتمى على الفراش خائرَ العزم والقوة . . .

قال الرجل : تدخل السجن ؟ . . . لماذا ؟ . . . أتعنى حادثة « المقص » مع السيد « عمران » ؛ لقد كنت أنت السببَ فى إنقاذ حياته ،

حين انتزعت المسدسَ من يد المقص ، وهو يريدُ مكافأتك على ذلك ؛ أما المقصُّ نفسُه فقد سيق إلى السجن مقبوضًا عليه ! . . .

قال جابر : ومن أنت أيها الرجل ؟ ولماذا كنت تُطاردنى إذن ؟ . . .

قال الرجل : كان يجبُ أن تعرفَ من أنا أيها الشريدُ ، قبل أن تلطِمنى تلك اللطمةَ الأليمةَ ، التى أفقدتْنى ضرسين من أضراسى ، وأنت تعلم أننى فَقَدت ثلاثةً من قبل ، فلم يبقَ لى إلا قليل ! . . .

وفى تلك اللحظة ، تنبَّه جابرٌ لصوت محدثه فعرفه ، إنه هو أبوه ؛ فحاول مغادرةَ الفراش وهو يقول : أبى !

قال الأب : إننى أبحث عنك منذ ثلاثة أيام يا جابر ، وقد أرسلت بضعةَ فُرسان إلى كل جهة ليبحثوا عنك ، بعد أن أخبرنى صديقُك موهوبٌ بالحقيقة كاملة ؛ لقد كنتَ أحمقَ كلَّ الحماقة حين كتمتَ الأمرَ عنى ، وكدتَ تُلقى بنفسك فى التَّهْلُكَة بطَيْشك ؛ ولكنى أحمَدُ اللهَ على هذه النتيجة ، وأرجو أن تنسى كلَّ ما أصابك بسبب غضبى ! .

قال جابر : معذرةً يا أبى ، وأسألُك العفو !

قال الأب : قد عذَرتُك يا بنىَّ وعفَوْت عنك ، ولكنى لن أنسى أبداً أنك أفقدتَنى أضراسى أيها . . . أيها الشريد ! . . .

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٣٠٧٣
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4442 - 2

١ / ٩١ / ٣٩٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)